سلسلة في رحاب القرآن

٤

وحدة المنطلق والمسيرة

الانشراح

بقلم

الأستاذ الشيخ محمد مهدي الآصفي

چاپ : امیر
قیمت : ۴۰۰ ریال

سلسلة في رحاب القرآن

٤

وحدة المنطلق والمسيرة

الانشراح

بقلم

الأستاذ الشيخ محمد مهدي الآصفي

دار القرآن الكريم

بمناسبة المؤتمر الرابع للأبحاث والدراسات القرآنية في دارالقرآن الكريم، قم ٢٧ رجب ١٤١٢ هـ

سلسلة في رحاب القرآن(٤)

(وحدة المنطلق والمسيرة...- الانشراح)

- المؤلف: سماحة الشيخ محمد مهدي الآصفي
- الناشر: دارالقرآن الكريم، قم- ص.ب ١٥١
- الصفّ والاخراج الفني الكمپيوتري: دارالقرآن الكريم
- زينغراف: حميد – قم
- تعداد: ٣٠٠٠ نسخة
- التاريخ: ٢٧ رجب ١٤١٢ هـ

وحدة المنطلق والمسيرة
والغاية في رسالات الله

وحدة المنطلق والمسير ة والغاية
في رسالات اللّه

على الرغم من تعـدد الرسالات الإلهية، وعلى الرغم من أن أي رسـالة من هذه الرسالات يختص بفترة زمنيـة تنتهي بالرسالة التي تليها -عدا خاتمـة الرسالات فإنها تمتد الى آخر الدنيـا- فإن هذه هذه الرسالات على إختلافهـا وتعددها، تشكل -في تاريخ الانسان- وحدة ذات منطلق واحد ومسير واحد وغاية واحدة... وإن إختلاف وتعدد الرسالات يعبر عن مراحل نضـج الانسان ورشده التاريخي، ويشكل المنهج التربوي والتشريعي الضروري لكل مرحلة من مراحل نضج الانسان ونموه.

وبإستثناء ذلك، فـإن هذه الرسالات كلها، تشكل خطاً رسـالياً واحداً، يملك عمقاً وإمتداداً واحداً ومترابطاً، وتشكل بمجموعها -من آدم عليه السّلام الى رسول الله محمد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وعليهم أجمعين- أسرة إيمانية واحدة متماسكة ومترابطة: ذات خط واحد، وعمق واحد ومنطلق واحد، ودعوة واحدة.

والذي يستعرض مراحل حياة هذه الاسرة الربانية من التاريخ، ويلاحظ الوحدة والمسانخة والانسجام والتشـابه بين هذه الرسالات على إختلاف مـراحلها وفتراتها،

ليطمئن بأن هذه الرسالات تنبع -جميعاً- من مصدر واحد، وتحمل -جميعاً- دعوة واحدة، وتواجه -جميعاً- مصيراً واحداً، وتملك -جميعاً- ولاءً واحداً وبراءة واحدة.

ولا يمكن أن تلتقي هذه الرسالات جميعاً -على إختلاف أزمانها وتباعد فتراتها- بهذه الصورة من الخط والدعوة والمنطلق والغاية والمسير والولاء والبراءة والعمل ... بصورة عفوية ومصادفة.

ويتعمق لدينا هذا الاحساس بوحدة الرسالات و إرتباطها جميعاً بالمصدر الرباني الواحد، عندما نلاحظ أن هذا اللقاء بين الرسالات، يتجاوز حدود الانسجام والتناسق والتشابه الى التصديق والتبشير.

فالمتقدمة منها تبشر بالمتأخرة، والمتأخرة منها تصدق المتقدمة وتحترمها، ولم يصادف أن احداها ناقضت الاخرى أو إنتقصتها أو أحصت عليها خطأً أو نقصاً.

وبغض النظر عن أي إعتبار آخر، وعن الاعجاز، وعن الغيب الذين يمكِّنُ الله تعالى أنبيائه منه كلما يشاء ... فإن هذا اللقاء والتناسق والانسجام والترابط و وحدة المنطلق والدعوة والغاية والمسير والمعاناة والحب والبغض، بين هذه المجموعة الكبيرة من الرسالات على إمتداد التاريخ الطويل، ليبعث الثقة والطمأنينة في نفي الانسان، بارتباط هذه الرسالات جميعاً -وهي معروفة ومشخصة في التاريخ- بالله سبحانه وتعالى.

ولا يمكن أن تلتقي هذه الرسالات جميعاً على خط واحد، ودعوة واحدة، ومنهج واحد، وحب واحد، وبغض واحد ... وتتصادف فيما بينها، مصادفة، وبصورة عفوية.

والذي يستعرض آيات القرآن الكريم في مايقص من قصص الانبياء عليهم السّلام، يجد في ذلك باباً آخر للايمان بالانبياء عليهم السّلام ورسالاتهم و إرتباطهم بالله تعالى وصدقهم.

والإمة الموحدة لله تعالى هي أسرة واحدة مهما إختلفت مواقعها الزمنية

ومواضعها من عمود التاريخ .

قال تعالى : **﴿وإنَّ هـذه أُمَّتكم أمَّة واحدةً وأنا ربُّكم فاتَّقونِ﴾** . (المؤمنون : ٥٢)

وبنفس هذه الكلمات تتكرر هذه الآية الكريمة في سورة الانبياء/ الآية(٩٢)

أمة واحدة من حيث المنطلق والمسار والغاية والأخلاق والحضارة... وإن كانوا يختلفون بحكم إختلاف مواضعهم في التاريخ وبحكم إختلاف مراحلهم ومستوياتهم في النضج العقلي في جملة من التفاصيل الواردة في منهج التشريع ... ولكن ذلك لا يعني أن لا يكون المؤمنون بتوحيد الله -من غير تحريف وإعوجاج- أسرة واحدة .

والقرآن الكريم يسمي هذه الاسرة بـ«الامة المسلمة»، ويسمي هذه الطريقة والمنهج بـ«الاسلام» ... وهو دين الله تعالى في حياة الانسان، فلن يقبل الله من الانسان غيره، ولم يبعث أنبياءه بغيره .

فقال تعالى : **﴿إنَّ الّدينَ عند اللّه الإسلـٰمُ﴾** . (آل عمران : ١٩)

وقال تعالى : **﴿ومن يبتغ غيرَ الإسلـٰمِ ديناً فلن يُقبَلَ منه وهو في الآخرة من الخـٰسرين﴾** . (آل عمران : ٨٥)

وقال تعالى : **﴿ومن أحسنُ ديناً ممَّن أسلَمَ وَجهَهُ للّه وهو مُحسنٌ﴾** . (النساء : ١٢٥)

والاسلام، هو التسليم والانقياد لله تعالى من دون العباد ... والعبودية لله سبحانه وحده .

وبهذه الدعوة يدعو القرآن الكريم أهل الكتاب أن يقفوا معنا -نحن المسلمين- على كلمة واحدة سواء بيننا وبينهم، وهي كلمة التوحيد والعبودية الخالصة لله، ونبذ أي عبودية لغير الله، ونبذ أي تسليم وطاعة لغير الله ومن دون إذن الله .

فقال تعالى : **﴿قل يـٰأهلَ الكتـٰب تعالَوا إلىٰ كَلِمَة سَواء بيننا وبينكم ألاّ نعبدَ**

إلاّ اللّه ولا نشركَ به شيئاً ولا يتّخذَ بعضنا بعضاً أرباباً من دون اللّه فإن تولّوا فقولوا اشهَدوا بأنّا مسلمون﴾ . (آل عمران : ٦٤)

وهذه «الكلمة» تجمع أطراف هذه الاسرة الواحدة مهما بعدت مواضعهم على عمود الزمان، واختلفت مناهجهم وشرائعهم .

الأُسرة الإبراهيميّة

تنتمي هذه الاسرة الى إبراهيم عليه السّلام أبي الانبياء ، لا لأن إبراهيم عليه السّلام هو الذي أشاد دعوة التوحيد على وجه الارض ولم يكن مثله من يدعو الى اللّه تعالى ، وإنما لأن إبراهيم عليه السّلام هو من أبرز المؤسسين لدعوة التوحيد ، ومن أخلص الدعاة الى الله من أسلاف هذه الاسرة ، فعرفت الاسرة في القرآن الكريم باسمه ، والانبياء عليهم السّلام الذين جاؤا من بعده يعتبرهم القرآن الكريم من هذه الاسرة .

فقال تعالى : **﴿ومن أحسنُ ديناً ممّن أسلَمَ وجهَهُ للّه وهو محسن واتّبعَ ملّة إبراهيم حنيفاً واتّخذ اللّه إبراهيمَ خليلاً﴾** . (النساء : ١٢٥)

وقال تعالى : **﴿وجٰهِدوا في اللّه حقَّ جِهٰده هو اجتبٰكم وما جعل عليكم في الدّين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم هو سَمّٰكمُ المسلمين ...﴾** . (الحج : ٧٨)

وقال تعالى : **﴿ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلاّ من سَفِهَ نفسَه ولقد اصطفَينٰه في الدُّنيا وإنّه فى الآخرة لمن الصّٰلحين*إذ قال له ربُّه أسلِم قال أسلَمتُ لربِّ العٰلَمين*و وصّىٰ بها إبراهيمُ بَنيه ويعقوبُ يٰبَنِيَّ إنَّ اللّه اصطفىٰ لكم الدّين فلا تموتُنّ إلاّ وأنتم مسلمون﴾** . (البقرة : ١٣٠-١٣٢)

فملة إبراهيم عليه السّلام هي الاسلام الحنيف الذي إصطفاه الله تعالى لإبراهيم وبنيه وشيعته ، و وصى إبراهيم عليه السّلام به أبناءه .

والاسرة المسلمة في التاريخ وعلى وجه الارض هي أسرة إبراهيم عليه السّلام .

ولم يكن إبراهيم عليه السّلام يهودياً أو نصرانياً ولا مشركاً ، وإنما كان حنيفاً مسلماً .

فيقول تعالى : **﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مُسلِماً وما**

كان من المشركين﴾(آل عمران : ٦٧) وليس من أحد أولى الناس بـإبراهيم من الذين إتبعوه و وضعوا خطاهم موضع خطاه، فقال تعالى : **﴿إنَّ أَولَى النّاس بإبراهيمَ لَلّذين اتَّبعوه وهـٰذَا النَّبيُّ والَّذين ءَامنوا واللّه وليُّ المؤمنين﴾** . (آل عمران : ٦٨)

ومن هـذا المنطلق الـرحب-لا من المنطلقـات الضيقة التي يـؤمن بهـا اليهود والنصارى-فإن هذا النبي الأُمي صلّى الله عليه وآلـه وسلّم، يكون أولى الناس بـإبراهيم عليه السّلام، ومن أكثر الناس صلة و إرتباطاً بهذه الاسرة الابراهيمية، وبعميدها أبي الانبياء إبراهيم الحنيف عليه السّلام .

ولقد كان اليهـود يظنون أنهم أولى من النصارى بـإبراهيم عليه السّلام لأنهم أقرب عهداً وأقـرب نسباً اليـه، وكان النصارى يظنـون أنهم ألصـق بإبـراهيم عليه السّلام من المسلمين لأنهـم أقرب عهـداً به وأقـرب نسباً، ولكـن القرآن الكـريم يشجـب هذه المنطلقات جميعـاً، ويضع أسـاساً جـديداً للارتبـاط والعلاقـة بهذه الاسـرة، وهذا الاساس ليس من قبيل وشيجة الدم والنسب، و إنما هو من وشيجة العقيدة والعمل، ولذلك فإن النبي الأمي صلّى الله عليه وآله وسلّم والذين إتبعوه من المسلمين هم أولى الناس بهذه الاسرة .

فاسرة التوحيد-إذن-أسرة واحدة في التاريخ، وان إختلفت مناهجها التشريعية في المراحل المختلفة من حياة وتاريخ هذه الاسرة .

والذي يتأمل في كتاب الله، يجد أن القرآن الكـريم يحرص حرصاً شديداً على أن يعكس للمسلميـن هذه الـوحدة من أسـرة التوحيد مـن حيث المنطلـق والمسار والغاية .

وبالتأمل في نقاط الالتقاء بين رسـالات الله-كما يعكسها القرآن الكريم بصورة واسعة-ينفتح أمامنا أفق جديد للتأمل والنظر والمعرفة برسالات الله .

فليس من الممكـن أن نلتقي هذا العدد الكبيـر من الانبياء والاديان فـي الفكر والدعوة والغاية عبر الامتداد الطويل مـن التاريخ، وفي نقاط مختلفة من المعمورة، بصورة عفويـة ومن دون أن تنتمي هذه الرسـالات جميعاً الى مصدر واحـد وتنبع من

نبع واحد.

وفيما يلي نستعرض بعض النماذج ونقاط الالتقاء بين رسالات الله تعالى في التاريخ من خلال القرآن الكريم، وهي -على نحو الاجمال- كما يلي:

أولاً: وحدة المصدر.

ثانياً: وحدة المنهج والهدى والدعوة.

ثالثاً: وحدة الولاء.

رابعاً: وحدة البراءة.

خامساً: وحدة المعاناة.

سادساً: وحدة العاقبة والنتيجة.

سابعاً: وحدة القبول «التبشير والتصديق».

وها نحن نستعرض هذه الوحدات، ونقاط الالتقاء بين رسالات الله في ضوء القرآن الكريم بقدر ما يتسع له صدر هذه التأملات.

وحدة المصدر ووحدة الاصطفاء

عندما نستعرض القرآن الكريم، نلاحظ أن القرآن الكريم يحرص -بصورة مؤكدة على إعلان إرتباط الانبياء عليهم السّلام، بالله تعالى، وأن ليس للانبياء أي مصدر آخر غير الوحي فيما يقولون.

و إن تأكيد هذه الصلة بين الانبياء عليهم السّلام وبين الله تعالى، وتعميقها في رسالات كل الانبياء عليهم السّلام، ونفي أي مصدر للرسالة في عمل الانبياء ... لظاهرة واضحة في القرآن الكريم تلفت النظر كثيراً.

ونقرأ فيما يلي بعض الآيات المرتبطة بهذا الامر.

١ - **﴿إنَّ اللّه اصطفىٰ ءَادم ونوحاً وءَال إبراهيم وءَال عمران على العٰلمين*ذرِّيَّةً بعضُها من بعض واللّه سَميع عَليم﴾**. (آل عمران: ٣٣و٣٤)

٢ - **﴿وما أرسلنا قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم فاسئلوا أهل الذِّكر إن كنتم**

لاتعلمون﴾ . (الانبياء : ٧)

٣- **﴿إنّا أوحَينا إليك كما أوحَينا إلىٰ نوح والنَّبيّن من بعده وأوحَينا إلىٰ إبراهيم وإسمٰعيل وإسحٰق ويعقوب والأسباط وعيسىٰ وأيّوب ويونس وهٰرون وسليمٰن وءَاتينا داوُ,د زَبوراً﴾** . (النساء : ١٦٣)

٤- **﴿كذٰلك يوحِي إليك وإلى الَّذين من قبلِك اللّهُ العزيزُ الحكيم﴾** . (الشورى : ٢)

٥- **﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم مَن لم نقصص عليك﴾** . (المؤمن : ٧٨)

٦- **﴿ ... ونوحاً هَدَينا من قبل ومن ذرِّيَّته داوُ,دَ وسليمٰن وأيّوب ويوسف وموسىٰ وهٰرون وكذٰلك نجزي المحسنين*وزكريّا ويحيىٰ وعيسىٰ وإلياسَ كلٌّ من الصّٰلحين*وإسمٰعيل واليَسَعَ ويونس ولوطاً وكلاً فضَّلنا على العٰلمين*ومن ءَاباءِهم وذرِّيّٰتهم وإخوانهم واجتبينٰهم وهدينٰهم إلىٰ صراط مستقيم*ذٰلك هُدَى اللّه يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون*أولئك الّذين ءَاتينٰهم الكتٰب والحكم والنُّبوَّة فإن يَكفرْ بها هٰؤلاء فقد وكَّلنا بها قوماً لَيسوا بها بكٰفرين﴾** . (الانعام : ٨٤-٨٩)

فالذي يستعرض هذه الآيات-وأمثالها من كتاب الله-يجد أن هؤلاء الانبياء يشكلون عمقاً وإمتداداً لأسرة واحدة، وينتمون جميعاً الى أصل واحد، ويأخذون جميعاً من مصدر واحد، ويتأدبون جميعاً بأدب واحد، ويهتدون جميعاً بهدى واحد .

وهذه الوحدة في المصدر والاصطفاء ليحتاج الى مزيد من الدقة والتأمل .

وباستعراض سريع لآيات كتاب الله ، نجد أن القرآن الكريم يعطي للانبياء شخصيتين مختلفتين تماماً ، هما :

١ - شخصية الانسان البشر.

٢- شخصية الرسول .

ونجد الاشارة الى هاتين الشخصيتين في أكثر من آية في القرآن الكريم، منها:

١- **﴿ما المسيحُ ابنُ مريمَ إلاّ رسول قد خلت من قبله الرُّسل وأمُّه صِدّيقةٌ كانا يأكلان الطَّعام﴾** . (المائدة: ٧٥)

فقوله تعالى: «رسول قد خلت من قبله الرسل» إشارة الى الجانب الثاني من شخصية المسيح بن مريم عليه السّلام، وهو: الرسالة. وهذا الجانب ليس حلقة منفرطة عن سائر الحلقات وإنما يرتبط بما قبله: «قد خلت من قبله الرسل».

وأما الجانب الأول-وهو الجانب الانساني الضعيف-فقد أشارت اليه الآية المباركة، بعبارة: «كانا يأكلان الطعام».

والى نفس المعنى تشير الآية المباركة التالية، بعد إستعراض طويل لتحديات المشركين ومطالبهم التعجيزية التي لم يطلبوا بها هداية ولا بصيرة وإنما أرادوا بها تعجيز النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، وتحديه:

قال تعالى: **﴿وقالوا لن نؤمن لك حتّىٰ تفجُرَ لنا من الأرض يَنبوعاً*أو تكون لك جنَّة من نخيل وعِنَب فتفَجِّرَ الأنهٰر خلالها تفجيراً*أو تُسقطَ السَّماء كما زعمتَ علينا كِسَفاً أو تأتيَ باللّه والملٰئكة قبيلاً*أو يكون لك بَيت من زُخرُف أو تَرقىٰ في السَّماء ولن نؤمن لرُقيِّك حتّىٰ تنزِّل علينا كتاباً نقرؤهُ قل سبحان ربّي هل كنتُ إلاّ بشراً رسولاً﴾** . (الاسراء: ٩٠-٩٣)

ويأتي هذا الجواب المقتضب البليغ على تلك التحديات والمطالب الطويلة بقوله:

«سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً؟».

ومن هذا الجواب المقتضب البليغ، يعرض القرآن هاتين الشخصيتين لانبياء الله عليه السّلام: شخصية الانسان «البشر»، وشخصية الرسول.

أ- شخصية الانسان البشر... «الأنا» في طبيعتها البشرية، وفي ضعف الانسان وجزعه وحبه للراحة والعافية-في غير معصية ولا ذنب طبعاً-، لا تملك من أمرها شيئاً، ولا حول ولا قوة ولا سلطان، إلا بما آتاه الله.

قال تعالى: ﴿قالت رسلهم إن نحن إلاّ بشرٌ مثلكم ولكنَّ اللّه يمُنُّ علىٰ من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطٰنٍ إلاّ بإذن اللّه﴾. (إبراهيم: ١١)

فليس له من علم بما يأتي عليه في غد، كما لا يكاد يعلم من الأمس شيئاً إلا في الحدود الضيقة التي يعرفها عامة الناس، وهؤلاء الانبياء عليهم السّلام من هذا الوجه من شخصيتهم ناس كسائر الناس يأكلون الطعام ويمشون في الاسواق.

فقال تعالى: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلاّ أنَّهم ليأكلون الطَّعام ويمشُون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة﴾. (الفرقان: ٢٠)

ب- شخصية الرسول، النبي، التي تتجرد عن «الأنا» ومتعلقاته بصورة كاملة، وتتجسد في الارتباط الكامل بالله تعالى، وتتحرر من كل سلطان للأنا والهوى، وترتبط بمحور الوحي إتباطاً كاملاً.

وهذه الشخصية هي التي يعصمها الله ويسددها ويصطفيها لرسالته وأمره وحكمه ويكرمها بالكرامات، ويدعمها بالمعجزات وينزل عليها البينات من آياته، ويطلعها على الماضي والحاضر والمستقبل، وعلى عالمي الغيب والشهادة.

والقرآن الكريم يعرض كلاً من هاتين الشخصيتين-أو بالاحرى كلاً من هذين الوجهين من شخصية الانبياء عليهم السّلام-بصورة مقترنة حيناً، وبصورة منفردة ومستقلة حيناً آخر.

ومن كل هذه الحالات تتراءى الشخصية الاولى ضعيفة، باهتة الظلال، عاجزة... بينما تتراءى الشخصية الثانية واضحة الظلال، قوية، مرتبطة بالله تعالى.

وها نحن نحاول أن نستقرء هذين الوجهين من شخصية الانبياء عليهم السّلام بصورة مستقلة وبصورة متقارنة من كتاب الله.

الأول: الجانب البشري من شخصية الانبياء عليهم السّلام:

وهذا الجانب من شخصية الانبياء عليهم السّلام، يكاد أن يكون غائباً فيما يستعرض القرآن الكريم من حياة الانبياء عليهم السّلام ودعوتهم وصراعهم مع أئمة الكفر، اللهم إلا من ظلال باهتة وضعيفة، وفي سياق سلبي أحياناً، نعرض نماذج

منها في هذه التأملات :

١ - التهديد

فقال تعالى : ﴿**ولو تَقَوَّلَ علينا بعضَ الأقاويل*لأخـذنا منه باليمين*ثمَّ لقطعنا منه الوتين*فما منكم من أحدٍ عنه حـٰجِزين**﴾ . (الحاقة : ٤٤-٤٧)

وأي تهديد قاس هذا الذي يهدد الله به حبيبه صلّى الله عليه وآله وسلّم ولولا أن قرآناً نزل في ذلك من العلي العظيم لما كنا نجرؤ أن نذكر هذا التهديد لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم

ولـو تقـوّل علينـا بعـض الاقـاويـل -فقـط بعـض الاقـاويـل وليس جميـع الاقاويـل- لأخذنـا منه بـاليمين ، ثـم لقطعنا منـه الوتيـن ، فما منكـم من أحـد عنه حاجزين ، -فلا أحد- يستطيع أن يحميه صلّى الله عليه وآلـه وسلّم عند ذلك من عقـوبة الله الشديدة القاهرة .

ياللهول ، ويا للتهديد المرعب الرهيب الذي يملأ النفس خوفاً ورعباً .

وإن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لا يمكن أن ينطق بهذا القول إلا أن يكون مؤمناً إيماناً مطلقاً بالله سبحانه وتعالى ، خاضعاً له خضوعاً كاملاً حقيقياً ، شاعراً بسلطانه وقوته الكبرى في الكون وهيمنته على كل أجزاء هذا الكون الكبير... على الناس وعليه وعلى جوارحه وجوانحه وخطرات قلبـه ، وإنه تعالى يحصي عليه صلّى الله عليه وآلـه وسلّم أنفاسه وألفاظه وكلماته ويراقب ما يقول ولا يغيب عنه تعالى شيء من أمره صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فيعلم تعالى بدخيلة نفسه صلّى الله عليه وآلـه وسلّم وما يخفي صلّى الله عليه وآلـه وسلّم على الناس .

فقال تعالى : ﴿**ولقد خلقنا الإنسـٰنَ ونعلم ما تُوَسـوِسُ به نفسه ونحن أقرب إليه من حبلِ الوَريـد*إذ يتلقَّى المتلقّيانِ عن اليمين وعن الشِّمال قعيد*مـا يَلفظُ من قولٍ إلاّ لدَيه رَقيبٌ عتيدٌ**﴾ . (ق : ١٦-١٨)

٢- المحاكمة والسؤال

ويخضع الانبياء للمحكمة الإلهية، وفي هذه المحكمة يخرج الانبياء عليهم السّلام ببراءة من كل التهم التي ألصقها الناس بهم، ولكن، في نفس الوقت، تظهر هذه المحاكم الجانب الانساني للانبياء بكل ما يحمل هذا الجانب من عجز وضعف وخضوع وعبودية لله تعالى.

ولننظر الى المشهد التالي من القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿**وإذ قال اللّه يـٰعيسَى ابنَ مريم ءأنتَ قلتَ للنّاس اتَّخذوني وأُمّي إلهين من دون اللّه قال سبحـٰنك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقّ إن كنتُ قلتُه فقد علمتَه تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنَّك أنت علّـٰم الغيوب*ما قلتُ لهم إلاّ ما أمرتَني به أنِ اعبدوا اللّه ربّي وربّكم وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم فلمّا توفَّيتَني كنتَ أنتَ الرَّقيبَ عليهم وأنت علىٰ كلِّ شيءٍ شهيد**﴾. (المائدة: ١١٦و١١٧)

٣- التجرد من كل دعوى ومن كل حول وقوة وسلطان إلا ما يأذن به الله، وما يمدهم به الله تعالى من حول وقوة وسلطان.

ونواجه هذا التجرد من كل دعوى ومن كل حول وقوة، في أكثر من موضع من القرآن الكريم. ونشاهد في هذا السياق من آيات القرآن الكريم: كيف يتجاوز الانبياء عليهم السّلام تحديات المشركين ومطالبهم التعجيزية المقرونة بالتعنت، حيث أنهم عليهم السّلام كانوا يتجاوزونها بالتجرد الكامل عن أي إدعاء إلا الرسالة، وأنهم لا يملكون من أمرهم شيئاً، وليس لهم من حول ولا قوة ولا سلطان، ولا دعوى لهم في شيء من ذلك إلا أن يمدهم الله تعالى ويأذن لهم به الله.

وهذا التجرد يرينا الجانب البشري من شخصية الانبياء عليهم السّلام، ذا الحجم المحدود، والامكانات المحدودة والضعيفة، دون أن يشق على الانبياء أن يعرضوا على الناس هذا الجانب الانساني الضعيف والمحدود من شخصيتهم أو أن يتجردوا

من أي إدعاء يمكن أن يتوهمه الناس فيهم من قدرة ذاتية خارقة أو حول وقوة يتجاوز حول الناس وقوتهم. ويجري كل ذلك أمام تحديات ومطالب المشركين المتعنتين، بصورة مريحة وسهلة.

ولنتأمل في هذه الآيات من سورة الاسراء التي تستعرض مطالبة المشركين للنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم بالمطالب التعجيزية والمتعنتة، والموقف النبوي غير المعقد والمريح، من كل تلك المطالب التعجيزية الذي تجسد بالتجرد عن كل حول وسلطان وقوة خارقة، وعن أي إدعاء لأمر من هذه الامور،إلا ما يكون من جانب الله سبحانه وبإذنه تعالى.

فقال تعالى: **﴿وقالوا لن نؤمن لك حتّىٰ تَفجُرَ لنا من الأرض ينبوعاً*أو تكون لك جنَّة من نخيل وعنبٍ فتفَجِّر الأنهٰر خلالَها تفجيراً*أو تسقط السَّماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي باللّه والملـٰئكة قبيلاً*أو يكون لك بيتٌ من زخرف أو تَرقىٰ في السَّماء ولن نؤمن لرُقيّك حتّىٰ تنزِّل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحـٰن ربّي هل كنتُ إلاّ بشراً رسولاً﴾**. (الاسراء: ٩٠-٩٣)

٤- نفي علمهم الخارق ومعرفتهم بالغيب إلا من خلال الوحي:

ويتكرر هذا النفي في مواضع مختلفة من القرآن الكريم.

فالقرآن ينفي أن يكون النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم عالماً بشيء من أمر الامم السابقة وقصص الانبياء ومن القرآن العظيم ... قبل أن يوحى اليه. وإن الوحي إذا إنقطع عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم، فسوف يعود كما كان.

ولنقرأ هذه الآيات المباركات من سورة القصص:

قال تعالى: **﴿وما كنتَ بجانب الغربيّ إذ قضينا إلىٰ موسَى الأمر وما كنت من الشّـٰهدين*ولكنّا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العُمُر وما كنت ثاوياً في أهل مَديَن تتلوا عليهم ءَايـٰتنا ولكنّا كنّا مرسلين*وما كنت بجانب الطّور إذ نادَينا ولكن رحمةً من ربِّك لتنذرَ قوماً ما أتيٰهم من نذيرٍ من قبلك لعلَّهم يتذكَّرون﴾**. (القصص: ٤٤-٤٦)

ثم لنتأمل في هذه الآيات المباركات على سبيل التمثيل.

قال تعالى: ﴿قل هو نبأ عظيمٌ*أنتم عنه معرضونَ*ما كان لي من علمٍ بالملأ الأعلىٰ إذ يختصمون*إن يوحىٰ إليَّ إلاّ أنَّما أنا نذيرٌ مبينٌ﴾ . (ص : ٦٧-٧٠)

وقال تعالى: ﴿ذٰلك من أنباء الغَيب نوحيه إليك وما كنتَ لديهم إذ يُلقون أقلٰمَهم أيُّهم يكفُل مريمَ وما كنتَ لديهم إذ يختصمون﴾ . (آل عمران : ٤٤)

وقال تعالى: ﴿وكذٰلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنتَ تدري ما الكتٰبُ ولا الإيمٰن ولكن جعلنٰه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنَّك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم﴾ . (الشورى : ٥٢)

وقال تعالى: ﴿وما كنتَ تتلوا من قبله من كتٰبٍ ولا تَخُطُّه بيَمينك ...﴾ . (العنكبوت : ٤٨)

٥- العتاب والتقريع

وهذه ظاهرة أخرى شائعة في القرآن الكريم، وتستلفت الانتباه كثيراً، تخضع فيها الذات النبوية لعتاب وتقريع شديدين من جانب الله تعالى في مسائل لم تكن لتمس عصمة الانبياء عليهم السلام، وإنما يكون على أكثر الاحوال عملاً من خلاف الاولى، مما كان ينبغي أن لا يصدر عن النبي أو كان من الميل الى الخيار الإلهي الاكثر عافية لأقوامهم وتسامحاً معهم.

ولنتأمل في هذه الآيات المباركات:

قال تعالى: ﴿عفا اللّه عنك لم أذِنتَ لهم حتّىٰ يَتبيَّن لك الَّذين صدقوا وتعلم الكٰذبين﴾ . (التوبة : ٤٣)

وقال تعالى: ﴿ما كان للنَّبيِّ والَّذين ءَامنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربىٰ من بعد ما تبيّن لهم أنَّهم أصحٰبُ الجحيم﴾ . (التوبة : ١١٣)

وقال تعالى: ﴿ما كان لنبيٍّ أن يكون له أسرىٰ حتّىٰ يُثخنَ في الأرض تريدون عرَضَ الدُّنيا واللّه يريد الآخرةَ واللّه عزيزٌ حكيمٌ*لولا كتٰبٌ من اللّه سبق لمسَّكم فيما أخذتم عذابٌ عظيمٌ﴾ . (الانفال : ٦٧و٦٨)

الثاني : الجانب الرسالي من شخصية الانبياء عليهم السّلام :

وبعكس الجانب الاول من شخصية الانبياء «الأنا» و «والذات البشرية»، الذي كان ضعيف الظلال ومحدوداً في كتاب الله الكريم ... نجد أن لشخصية الانبياء وجهاً آخر غير هذا الوجه.

واذا صح لنا أن نسمي الوجه الاول من شخصية الانبياء عليهم السّلام بـ«الانا» والمكونات الضعيفة لها ... فإن الوجه الثاني قوامه الارتباط بالله الـ«هو».

وهذا الوجه يختلف إختلافاً جوهرياً عن الوجه الاول، فهو موضع إصطفاء الله تعالى وهدايته ونزول الوحي وإنكشاف الماضي والمستقبل والشهود والغيب، وموضع تسديد الله وتأييده وإكرامه بالكرامات ودعمه بالمعجزات وموضع للعصمة والتنزيه.

وبالاجمال : فإن هذا الوجه هو رحمة الله تعالى.

ونشير فيما يلي الى بعض هذه النقاط :

١- الاصطفاء الإلهي للرسالة من جانب الله :

فقال تعالى : **﴿إنَّ اللّه اصطفىٰ ءَادم ونوحاً وءَال إبراهيم وءَال عمران علَى العٰلَمين*ذرِّيَّةً بعضُها من بعض﴾** . (آل عمران : ٣٤)

٢- الهداية الربانية :

فقال تعالى : **﴿ ... ونوحاً هدَينا من قبلُ ومن ذرِّيَّته داوُ,د وسليمٰن وأيّوب ويوسف وموسىٰ وهٰرون وكذٰلك نجزى المحسنين*وزكريّا ويحيىٰ وعيسىٰ وإلياس كلٌّ من الصّٰلحين﴾** . (الانفال : ٨٤-٨٥)

٣-الوحي الإلهي :

قال تعالى : **﴿إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلىٰ نوح والنّبيّين من بعده وأوحينا إلىٰ إبراهيم وإسمٰعيل وإسحٰق ويعقوب والأسباط وعيسىٰ وأيّوب ويونس وهٰرون**

وسليمـٰن وءَاتينا داوُ,دَ زبوراً﴾ . (النساء : ١٦٣)

٤- الخلافة الإلهية :

قال تعـالى : ﴿يـٰداوُ,دُ إنّا جعلنـٰك خليفةً فـى الأرض فاحكُـم بين النّـاس بالحقِّ﴾ . (ص : ٢٦)

٥- الامامة والعهد الإلهي :

قال تعالى : ﴿وإذِ ابتلىٰ إبراهيمَ ربُّهُ بكلمـٰتٍ فـأتمَّهنَّ قال إنّي جـٰعِلك للنّاس إماماً قال ومن ذرِّيَّتي قال لا ينال عهدى الظّـٰلمين﴾ . (البقرة : ١٢٤)

٦- العصمة والتسديد الإلهي :

قال تعالى : ﴿والنَّجم إذا هـوىٰ*ما ضلَّ صاحبُكـم وما غوىٰ*وما ينطـق عن الهوىٰ*إن هو إلاّ وحيٌ يوحىٰ*علّمه شديدُ القُوىٰ﴾ . (النجم : ١-٥)

٧- التعليم الإلهي :

قال تعالى : ﴿كذٰلك نقصُّ عليـك من أنباء ما قد سبق وقد ءَاتينـٰك من لدنّا ذكراً﴾ . (طه : ٩٩)

٨- نزول البينات على يد الانبياء عليهم السّلام من الآيات والمعجزات مـن جانب الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ ... ولقد جاءتهم رسلنا بالبيِّنـٰت ثـمَّ إنَّ كثيراً منهم بعد ذٰلك فى الأرض لمسرفون﴾ . (المائدة : ٣٢)

وقال تعالى : ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبيِّنـٰت وأنزلنـا معهم الكتـٰب والميزان ليقومَ النّاس بالقسط ... ﴾ . (الحديد : ٢٥)

والذي يستقرىء هذه المجموعة من الآيات المباركات وغيرها، يستقرىء مسيرة هذه القافلة الممتدة في تاريخ الانسان من الانبياء والمرسلين وحياتهم ودعوتهم وصراعهم وكلماتهم... يرى أن هؤلاء:

١- لا يدّعون لأنفسهم شيئاً من حول أو قوة أو سلطان.

٢- ويدعون جميعاً إنهم يرتبطون بالله تعالى في كل شيء، وإن الله عزّ وجل هو المصدر الوحيد الذي يمنحهم العلم والفقه والآيات والبينات والرسالة والامامة والحكم في الناس والتسديد والعصمة، وإنهم لا يقولون «ما يقولون» من تلقاء أنفسهم وإنما يقولون عن الله تعالى، ولا يفترون ولا يكذبون على الله سبحانه.

وهذه اللهجة تعم بصورة دقيقة كل مسيرة النبوة والرسالة على إمتداد التاريخ، وما عرفنا في التاريخ وما حدثنا به القرآن أو غيره من المصادر عن حياة الانبياء عليهم السّلام وقصصهم -مَن ذُكر في القرآن منهم ومن لم يُذكر- فلم يكن لهم من إدعاء غير هذا الارتباط، ولم يكن لهم من قول أو عمل ينافي هذا الارتباط.

وحدة التشريع

على الرغم من الاختلاف الموجود بين الرسالات الإلهية في تفاصيل التشريعات والعبادات بموجب إختلاف مراحل هذه الرسالات وإختلاف مستويات نضج الانسان وتكامله في حركة التاريخ... فلا يشقُّ علينا أن نكتشف في القرآن الكريم وحدة إجمالية في التشريع بين الرسالات الإلهية المختلفة تكشف عن وحدة المصدر والخط والغاية والاسلوب والمحتوى في هذه الرسالات فيقول تعالى للمسلمين:

﴿شرع لكم من الدّين ما وصّىٰ به نوحاً والّذي أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ أن أقيموا الدّين ولا تتفرّقوا فيه﴾. (الشورى: ١٣)

فالذي شرعه الله لنا هو -على نحو الاجمال- نفس الذي وصى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى، وإن إختلفت هذه الاديان في بعض التفاصيل والمسائل.

ويستعرض القرآن الكريم تفاصيل أكثر عن هذه الوحدة الاجمالية في التشريع

والمناهج والاختلاف بين الرسالات الإلهية:

فيقول تعالى: ﴿إنَّ الَّذين ءَامنوا والَّذين هادوا والنَّصٰرىٰ والصّٰبئين مَن ءَامن باللّه واليوم الآخر وعمل صٰلحاً فلهم أجرهم عند ربِّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾. (البقرة: ٦٢)

وقريب من هذا المعنى في سورة المائدة/ الآية٦٩.

ويقول تعالى: ﴿وإلىٰ مدين أخاهم شعيباً قال يٰقوم اعبدوا اللّه ما لكم من إلٰه غيره قد جاءتكم بيِّنة من ربّكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا النّاس أشياءَهم ولا تُفسدوا في الأرض بعد إصلٰحها ذٰلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين*ولا تقعدوا بكلِّ صراط توعِدون وتصدّون عن سبيل اللّه من ءَامن به وتبغونها عوجاً...﴾. (الاعراف: ٨٥و٨٦)

وقال تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبيِّنٰت وأنزلنا معهم الكتٰب والميزان ليقوم النّاسُ بالقسط...﴾. (الحديد: ٢٥)

وقال تعالى: ﴿يٰأيُّها الرُّسل كلوا من الطَّيِّبٰت واعملوا صٰلحاً...﴾. (المؤمنون: ٥١)

وقال تعالى: ﴿يٰداوُ,دُ إنّا جعلنٰك خليفةً في الأرض فاحكم بين النّاس بالحقّ ولا تتّبعِ الهوىٰ فيضلَّك عن سبيل اللّه إنّ الَّذين يُضلّون عن سبيل اللّه لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾. (ص: ٢٦)

واذا تمعنا أكثر في القرآن الكريم بهذا الصدد، نجد أن الرسالات الإلهية تتفق في مفردات جملة من التشريعات، ولا تختلف شريعة عن أخرى في التكليف بهذه المفردات التشريعية، نذكر منها -من باب المثال-: القتال، الحج، الصيام، والقصاص.

يقول تعالى: ﴿إنَّ اللّه اشترىٰ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنَّة يقٰتلون في سبيل اللّه فيَقتُلون ويُقتَلون وعداً عليه حقّاً في التوريٰة والإنجيل والقرءَان ومن أوفىٰ بعهده من اللّه فاستبشروا ببيعكم الَّذي بايعتم به وذٰلك هو الفَوز

العظيم﴾. (التوبة: ١١١)

وفي أمر الحج ومناسكه، يقول تعالى:

﴿واذ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسمٰعيل ربَّنا تقبَّل منّا إنَّك أنت السَّميع العليم*ربَّنا واجعلنا مسلمَين لك ومن ذرِّيَّتنا أمَّةً مسلمةً لك وأرنا مناسكنا وتُب علينا إنَّك أنت التَّوّاب الرَّحيم﴾. (البقرة: ١٢٧و١٢٨)

وفي أمر الصيام، يقول تعالى:

﴿يٰأيُّهَا الَّذين ءَامنوا كُتب عليكم الصِّيام كما كُتب على الَّذين من قبلكم لعلَّكم تتَّقون﴾. (البقرة: ١٨٣)

وفي أمر القصاص، يقول تعالى:

﴿إنّا أنزلنا التَّورٰة فيها هدًى ونورٌ. . . *وكتبنا عليهم فيها أنَّ النَّفس بالنَّفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسنَّ بالسنِّ والجروحَ قصاصٌ فمن تصدَّق به فهو كفّٰرةٌ له ومن لم يحكم بما أنزل اللّه فأولئك هم الظّٰلمون﴾. (المائدة: ٤٤و٤٥)

وبهذه الطريقة نجد أن المحتوى التشريعي لرسالات الله، كما يرسمها القرآن الكريم-محتوى واحد ومن سنخ واحد وعلى خط واحد ومن مصدر واحد تحكمها روح واحدة.

والذي يقرأ هذا الاستعراض التاريخي لشرائع الله في القرآن الكريم لمراحل طويلة من تاريخ الانسان يطمئن أن هذه الرسالات تشكل خطاً واحداً، وإن الانبياء الذين جاؤا بهذه الرسالات على فترات من تاريخ الانسان، يشكلون أسرة واحدة ذات محور واحد.

ورسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم هو وارث هذه الاسرة الربانية المباركة، فورث عنهم هذا المنهج التشريعي الإلهي، وورث الكتب والالواح، إلا أن الله تعالى جعل شريعته خاتمة الشرائع وجعله خاتم الانبياء، وضمن تلك الشرائع ما يُصلح الانسان في مرحلة نضجه الأخير.

وقد روي أن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، أمر برجم يهوديين بحكم التوراة، وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم «أنا أحق من أحيى سنة أماتوها» . [١]

وروى أبو بصير عن أبي عبد الله الصادق عليه السّلام قال: قال لي: يا أبا محمد أن الله عزوجل لم يعط الانبياء شيئاً إلا وقد أعطاه محمداً صلّى الله عليه وآله وسلّم، قال: وقد أعطى محمداً صلّى الله عليه وآله وسلّم جميع ما أعطى الانبياء، وعندنا الصحف التي قال الله عزوجل صحف إبراهيم وموسى . [٢]

وحدة الولاء ووحدة البراءة

وحدة الولاء و وحدة البراءة، أهم مقومات الاسرة الواحدة، وليس هناك من أمر يقرب البعيد ويبعد القريب، كالولاء والبراءة. فكما أن الولاء الواحد والبراءة الواحدة يوحد بين أناس بعداء من ألوان شتى ولغات عديدة وأقطار بعيدة، فإن إختلاف الولاء والبراءة-كذلك-يبعد بين الاخ وأخيه وبين الاب وبنيه وبين الزوج وزوجه، حتى أن الله تعالى يسلب «الأهلية» من الابن لأبيه.

فقال تعالى: ﴿قال يـٰنوح إنَّه ليس من أهلك إنَّه عَمَل غيرُ صـٰلح﴾. (هود: ٤٦)

وتتبرأ الزوجة من زوجها.

فقال تعالى: ﴿وضرب الله مثلاً للَّذين ءَامنوا امرأتَ فرعون إذ قالت ربِّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنَّة ونجِّني من فرعون وعمله ونجِّني من القوم الظّـٰلمين﴾. (التحريم: ١١)

وما من شيء يمكن أن يجمع الناس أو يفرقهم كالولاء والبراءة.

وعندما نستعرض القرآن الكريم يلفت نظرنا-بشكل خاص-وحدة الولاءو وحدة

(١) الاصول للرحني ٢/ ١٠٠ .

(٢) أصول الكافي ١/ ٢٢٥، وبحار الأنوار ١٧/ ١٣٣ .

البراءة التي تجمع الانبياء عليهم السّلام بعضهم الى بعض.

وعلى الرغم من الفواصل الزمنية والمكانية الكبيرة التي تفصل الانبياء عليهم السّلام بعضهم عن بعض... نرى وحدة الولاء و وحدة البراءة بهذه الصورة الدقيقة التي يرسمها القرآن الكريم، إذ يجعل من الانبياء عليهم السّلام أسرة واحدة، تنبع أفكارها وتوجهاتها من مصدر واحد. ولا يمكن أن تتحد هذه السلسلة الطويلة من الانبياء والمرسلين عليهم السّلام-على إمتداد التاريخ الطويل-في الولاء والبراءة دون أن يكون لهم جميعاً مصدر واحد، دون أن تجمعهم جميعاً جذور واحدة ومبدأ واحد و إيمان واحد.

فالذين آمنوا في تاريخ البشرية-على إمتداده الطويل-لهم ولاء واحد وبراءة واحدة، والذين كفروا في تأريخ البشرية-على إمتداده الطويل-لهم ولاء واحد وبراءة واحدة.

قال تعالى: ﴿**اللّه وليُّ الَّذين ءَامنوا يُخرجهم من الظُّلمٰت إلَى النّور والَّذين كفروا أولياؤهم الطّٰغوت يخرجونهم من النّور إلَى الظُّلمٰت أولئك أصحٰب النّار هم فيها خالدون**﴾. (البقرة: ٢٥٧)

وقال تعالى: ﴿**لا تجد قوماً يؤمنون باللّه واليوم الآخر يوادّون مَن حادَّ اللّه ورسوله ولو كانوا ءَاباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كَتَبَ في قلوبهم الإيمٰن وأيَّدهم بروحٍ منه ويدخلهم جنّٰت تجري من تحتها الأنهٰر خالدين فيها رضيَ اللّه عنهم ورضوا عنه أولئك حزب اللّه ألا إنَّ حزب اللّه هم المفلحون**﴾. (المجادلة: ٢٢)

وكما إنك لا تجد قوماً يؤمنون بالله ورسوله يحبون من حادَّ الله ورسوله، فإنك لا تجد-كذلك-قوماً كفروا بالله ورسوله يودون الخير للذين آمنوا.

فقال تعالى: ﴿**ما يودُّ الَّذين كفروا من أهل الكتٰب ولا المشركين أن ينزّل عليكم من خيرٍ من ربّكم**﴾. (البقرة: ١٠٥)

وهكذا يفرز «الولاء والبراءة» الناس بعضهم عن بعض، كما يجمع «الولاء

والبراءة» الناس بعضهم الى بعض .

والقرآن الكريم يشير إشارات إجمالية الى وحدة الولاء والبراءة في سلسلة الانبياء عليهم السّلام، كما يذكر ذلك أحياناً ذكراً تفصيلياً .

وفيما يلي نورد نماذج من الآيات الشاهدة على وحدة الولاء و وحدة البراءة في حياة الانبياء عليهم السّلام

١ - قال تعالى : **﴿ولقد بعثنا في كلِّ أمَّة رسولاً أنِ اعبدوا اللّه واجتنبوا الطّٰغوت فمنهم من هدَى اللّه ومنهم من حقّت عليه الضَّلٰلة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذِّبين﴾** . (النحل : ٣٦)

٢- وفي البراءة من الذين كفروا، يقول القرآن الكريم : **﴿لُعِنَ الَّذين كفروا من بني إسراءيل علىٰ لسان داوُ,د وعيسَى ابنِ مريم ذٰلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾** . (المائدة : ٧٨)

٣- ويجعل الله سبحانه خليله إبراهيم لنا قدوة حسنة في البراءة من المشركين ومما يعبدون ،

فقال تعالى : **﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والَّذين معه إذ قالوا لقومهم إنا بُرَءَاؤُا منكم وممّا تعبدون من دون اللّه كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتّىٰ تؤمنوا باللّه وحده... ﴾** . (الممتحنة : ٤)

٤- ولنستمع الى إبراهيم عليه السّلام يعلن براءته من المشركين وما يعبدون من دون الله ، في قوله تعالى :

أ- **﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون اللّه وأدعوا ربّي عسىٰ ألاّ أكون بدعاء ربّي شقياً*فلمَّا اعتزلهم وما يعبدون من دون اللّه وهبنا له إسحٰق ويعقوب وكلاً جعلنا نبيّاً﴾** . (مريم : ٤٨و٤٩)

ب- **﴿قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون*أنتم وءَاباؤكم الأقدَمون*فإنَّهم عدوٌّ لي إلاّ ربَّ العٰلمين﴾** . (الشعراء : ٧٥-٧٧)

ج- **﴿إذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنَّني بَراءٌ ممّا تعبدون*إلاّ الَّذي فطرني فإنَّه**

سيهدينِ*وجعلها كلمةً باقيةً في عَقِبِه لعلَّهم يرجعون﴾ . (الزخرف: ٢٦-٢٨)

فقد جعل إبراهيم عليه السّلام هذا الولاء وهذه البراءة، كلمة باقية في أولاده وذريته، فخط لهم بها خط الحب والبغض والمواصلة والمفاصلة والانتماء والمقاطعة... وتلك هي ملة إبراهيم عليه السّلام.

٥- وهود عليه السّلام، يعلن ولاءه وبراءته لقومه.

فقال تعالى: **﴿... قال إنّي أُشهدُ اللّه واشهَدوا أنّي برىءٌ ممّا تشركون*مِن دونه فكيدوني جميعاً ثمَّ لا تُنظرون*إنّي توكّلت علَى اللّه ربّي وربّكم ...﴾** . (هود: ٥٤-٥٦)

٦- ونستمع الى قصة نوح عليه السّلام في القرآن الكريم، إذ كاد حبه لإبنه أن يخرجه عن دائرة الولاء لأولياء الله والبراءة من أعدائه، لولا أن الله عزوجل سدّده وعصمه فأذعن لحكم الله وأمره من البراءة من أعداء الله.

فقال تعالى: **﴿ونادىٰ نوح ربَّه فقال ربِّ إنَّ ابني من أهلي وإنَّ وعدك الحقُّ وأنت أحكم الحٰكمين*قال يٰنوح إنَّه ليس من أهلك إنَّه عَمَل غيرُ صٰلح فلا تسئلنِ ما ليس لك به علم إنّي أعظك أن تكون من الجٰهلين*قال ربِّ إنّي أعوذ بك أن أسئلك ما ليس لي به علمٌ وإلاّ تغفر لي وترحَمني أكن من الخٰسرين﴾** . (هود: ٤٥-٤٧)

ولئن كان نوح عليه السّلام قد مال الى إبنه ميلاً خفيفاً، فإن سرعة إذعانه لأمر الله تعالي وأدبه في الاستغفار واستعاذته بالله تعالى كان غاية في العبودية وقمة من قمم الادب والتواضع مع الله تعالى، فـ **﴿سلٰمٌ علىٰ نوح في العٰلمين﴾** . (الصافات: ٧٩)

وحدة المعَاناة

إن وحدة المواجهة والابتلاء والمعاناة في ساحات العمل تكشف-عادة-عن وحدة الخط الفكري والعملي.

فالذين لا يملكون إتجاهاً مبدئياً، والذين يضعون أنفسهم في مهب الرياح السياسية، لا تجد لهم معاناة في المواجهة إطلاقاً.

وكذا أصحاب الاتجاهات الاصلاحية المدارية التي لا تصطدم بمصالح الحكام وذوي النفوذ والسلطان السياسي في المجتمع؛ لا يلقون مواجهة عنيفة في ساحة العمل.

وكذلك أولئك الذين يحملون روح الاستسلام والمساومة في العمل فإنهم لا يلقون مواجهة عنيفة في العمل.

كما إن صبر العاملين على معاناة الطريق وتحمل إتعابه ومشاكله وطول نفسهم في المواجهة يتوقف-الى حد كبير-على درجة إيمانهم بالله تعالى وثقتهم بإمداده ورحمته وتوكلهم عليه... فكلما كانت درجة ايمان الانسان بالله وثقته بإمداده وفضله. وتوكله عليه؛ أكثر وأقوى... كلما كان نفسه أطول في المواجهة، وأكثر إطمئناناً وثباتاً وتحملاً لعناء الطريق ومشاق العمل.

ومن هنا، فإننا نستطيع أن نكتشف صدق العاملين والدعاة وإيمانهم برسالتهم من نوع المواجهة، ونوع المعاناة، ودرجة الصبر والثبات...

وبهذا الترتيب فإن وحدة المعاناة والمواجهة والتحمل تكشف عن وحدة الخط الفكري والعملي في حياة العاملين.

وعندما نستعرض معاناة الانبياء ومواجهتهم للمشركين، نجد أن مسألة المواجهة والمعاناة من أبرز المسائل في حياة الانبياء عليهم السّلام، وأن نوع الدعوة ونوع مواجهة الاعداء لها بالتكذيب والاستهزاء والاستخفاف، ونوع معاناة الانبياء عليهم السّلام ونوع مواجهتهم لتحديات المشركين... كل ذلك يكشف عن وحدة الخط الفكري والسلوكي للانبياء عليهم السّلام، وأنهم من أسرة واحدة ويتصلون بمصدر واحد ويحملون هماً واحداً ورسالة واحدة، وكلهم مؤمنون-أعلى درجات الايمان-بالرسالة التي يحملونها، صادقون فيما يقولون، على درجة عالية من الثقة بالله العزيز العليم الذي يحملون رسالته ودعوته ويدعون اليه.

وأول ما نواجه في هذه المعاناة صدود المشركين عن دعوة الانبياء والانغلاق الاعمى على دعوة الرسل وما يلفت النظر أن هؤلاء القوم لا يزيدون على الانغلاق ولا يفتحون بينهم وبين أنبيائهم باباً من أبواب المنطق والحوار والتفاهم.

والاداة المفضلة لديهم في مواجهة دعوة الانبياء، هي التكذيب والاستهزاء والاستخفاف بالانبياء عليهم السّلام ودعواتهم، و إتهامهم إياهم بالسحر والجنون.

قال تعالى: ﴿كذٰلك ما أتى الَّذين من قبلهم من رسول إلَّا قالوا سٰحِرٌ أو مجنون*أتَواصَوا به بل هم قوم طاغون*فتولَّ عنهم فما أنت بملومٍ*وذكّر فإنَّ الذِّكرىٰ تنفع المؤمنين﴾. (الذاريات: ٥٢-٥٥)

وقال تعالى: ﴿وإن يكذّبوك فقد كذّبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود*وقوم إبراهيم وقوم لوط*وأصحٰب مدين وكُذّب موسىٰ ...﴾. (الحج: ٤٢-٤٤)

وقال تعالى: ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالَّذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءُون﴾. (الانعام: ١٠)

وقال تعالى: ﴿كذَّبت قبلهم قومُ نوح وأصحٰب الرَّسِّ وثمود*وعاد وفرعون وإخوان لوط*وأصحٰب الأيكة وقوم تبَّع كلٌّ كذَّب الرُّسل فحقَّ وعيد﴾. (ق: ١٢-١٤)

وقال تعالى: ﴿يٰحسرةً علَى العباد ما يأتيهم من رسول إلاّ كانوا به يستهزءون﴾. (يس: ٣٠)

وقال تعالى: ﴿وإن تكذِّبوا فقد كَذّب أمم من قبلكم وما علَى الرَّسول إلاّ البلٰغ المبين﴾. (العنكبوت: ١٨)

وقال تعالى: ﴿وإن يكذِّبوك فقد كَذَّب الَّذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبيِّنٰت وبالزُّبر وبالكتٰب المنير*ثمَّ أخذتُ الَّذين كفروا فكيف كان نكير﴾. (فاطر: ٢٥و٢٦)

ونلاحظ، أن هؤلاء المشركين يتحدون الانبياء ودعواتهم بأسلافهم من المشركين والجاهلين، ويقاومون دعوة الانبياء الى التحرر من القيود والاغلال والتخلص من

رواسب جاهلية الاسلاف، والانطلاق الى الله تعالى ... بالدعوة الى الجمود على طريق الاسلاف وفهمهم ورؤاهم وتصوراتهم، وحظر التفكير والحوار والفهم والاستماع؛ على الناس، وإبقاء الناس في دائرة جاهلية الآباء والاسلاف ... دون أن يحق لهم أن يفكروا في شيء جديد أو يستمعوا الى دعوة جديدة تنافي طريقة الآباء الجاهلية القديمة.

قال تعالى: ﴿... **قالوا إن أنتم إلّا بشر مثلنا تريدون أن تصدّونا عمّا كان يعبد ءاباؤنا ...**﴾. (إبراهيم: ١٠)

وقال تعالى: ﴿**بل قالوا إنّا وجدنا ءاباءنا على أمّةٍ وإنّا علىٰ ءاثٰرهم مهتدون**﴾. (الزخرف: ٢٢)

ومن العجيب أن الطبقة المترفة المرفهة من المجتمع هي التي تحمل-عادة-لواء معارضتها الانبياء عليهم السّلام والمشاققة والتمرد، والكيد للانبياء عليهم السّلام وتؤلب الاقوام عليهم.

ويبدو أن الطبقة المترفة المستفيدة من الاوضاع الجاهلية، تقدر بأنها سوف تخسر مواقعها الاجتماعية والمالية والسياسية في المجتمع الجديد الذي يدعو اليه الانبياء عليهم السّلام. ولذلك فإن أفرادها يقفون دائماً في مقدمة صفوف المعارضة الجاهلية.

قال تعالى: ﴿**وما أرسلنا في قرية من نذير إلّا قال مترفوها إنّا بما أُرسلتم به كٰفرون**﴾. (سبأ: ٣٤)

وقال تعالى: ﴿**وكذٰلك ما أرسلنا من قبلك في قريةٍ من نذيرٍ إلّا قال مترفوها إنّا وجدنا ءاباءَنا علىٰ أمّة وإنّا على ءاثٰرهم مقتدون**﴾. (الزخرف: ٢٣)

ومن أبرز خصائص هذه المواجهة الجاهلية هو التعنت والاستكبار والرعونة والتعجيز في المطالب.

والقرآن الكريم يعرض علينا نماذج من هذا التعنت في الموقف والمواجهة من قبل المترفين.

فقال تعالى: ﴿الَّذين قالوا إنَّ اللّه عَهِدَ إلينا ألاّ نؤمن لرسول حتّىٰ يأتيَنا بقربان تأكله النّار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبيّنٰت وبالَّذي قلتم فلِمَ قَتلتموهم إن كنتم صٰدقين﴾. (آل عمران: ١٨٣)

وقال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأوّلين*وما يأتيهم من رسول إلاّ كانوا به يستهزءون*كذٰلك نسلُكه في قلوب المجرمين*لا يؤمنون به وقد خلت سنَّة الأوّلين*ولو فتحنا عليهم باباً من السَّماء فظلّوا فيه يعرجون*لقالوا إنَّما سكِّرَت أبصٰرُنا بل نحن قوم مسحورون﴾. (الحجر: ١٠-١٥)

فحتى لو فتح الله تعالى عليهم باباً من السماء وعرجوا منه اليها؛ لقالوا: «إنما سكرت أبصارنا»! ولم يؤمنوا!!!

وفي مقابل هذا التعنت والايذاء والمطاردة والمواجهة العنيفة والاستهزاء والاستخفاف والاتهام بالجنون والمضايقة في كل مسالك الحياة... كان الانبياء عليهم السّلام يستعينون بالصبر والصلاة في مواجهة الاعداء، ويضعون ثقتهم بالله تعالى، ويتوكلون عليه سبحانه، فلا يصيبهم نصب ولا تعب ولا يكلون ولا يدخلهم اليأس ويواصلون المسيرة بنفس ثابتة مطمئنة:

فقال تعالى: ﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلاّ بشر مثلكم ولكنَّ اللّه يمنُّ علىٰ من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطٰن إلاّ بإذن اللّه وعلَى اللّه فليتوكَّل المؤمنون*وما لنا ألاّ نتوكَّل علَى اللّه وقد هدٰنا سبلنا ولنصبرَنَّ علىٰ ما ءَاذيتمونا وعلَى اللّه فليتوكَّل المتوكِّلون﴾. (إبراهيم: ١١و١٢)

وقال تعالى: ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرُّسل ولا تستعجل لهم﴾. (الأحقاف: ٣٥)

والفتنة والابتلاء سنة لله تعالى، عامة في كل الانبياء والمرسلين عليهم السّلام وفي كل الدعاة العاملين في سبيل الله، ولا يستثني الله تعالى أحداً منهم من هذه الفتنة التي يصيب بها عباده، ليميز بها الصادقين من عباده عن الكاذبين.

فقال تعالى: ﴿أحسب النّاس أن يُتركوا أن يقولوا ءَامنّا وهم لا يُفتنون*ولقد فتنّا

الَّذين من قبلهم فليعلمنَّ اللّه الّذين صدقوا وليعلمنَّ الكـٰذبين﴾ . (العنكبوت : ٢و٣)

وعجيب تـأكيد القـرآن الكريـم على شموليـة الابتلاء والفتنـة في حيـاة الانبياء والمرسلين والدعاة الـى الله عامة . والتأكيد بأن الجنة لا يمكـن أن يدخلها أحد من المؤمنين من دون هذا الابتلاء والفتنة والعذاب والمعاناة .

قال تعـالى : **﴿أم حسبتم أن تـدخلوا الجنَّة ولمّـا يأتكم مثـل الّذين خلَـوا من قبلكم مسَّتهم البأساء والضَّرّاء وزُلزلوا حتّىٰ يقـولَ الرَّسول والَّذين ءَامنوا معه متىٰ نصر اللّه ألا إنَّ نصر اللّه قريب﴾** . (البقرة : ٢١٤)

وقال تعالى : **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنَّة ولمّا يعلـمِ اللّه الّذين جـٰهَدوا منكم ويعلمَ الصّـٰبرين﴾** . (آل عمران : ١٤٢)

وقال تعالى : **﴿أم حسبتم أن تتـركوا ولمّا يعلـمِ اللّه الَّـذين جـٰهَدوا منكـم ولم يتَّخـذوا مـن دون اللّـه ولا رسـولـه ولا المـؤمنيـن وليجـة واللّـه خبيـر بمـا تعملون﴾** . (التوبة : ١٦)

وحدة العاقبة والمصير

كما تحكم مسيرة الانبياء والمرسلين عليهم السّلام سنن إلهية ثابتة ، كذلك تحكم السنن الإلهية عاقبة ونتيجة هذه المسيرة ، والمصير الذي يؤول اليه أمر هذه المواجهة والصراع في الأخير.

والقرآن الكـريم –مـن خلال الصـورة التي يـرسمها للصـراع الدامـي والمعركـة المصيرية بين الانبياء عليهم السّلام وأئمة الكفر، وما يستتبع هـذا الصراع من آلام ومعاناة ومتاعب للمؤمنين والمكذبين معاً– يرسم السنـن الإلهية في هذه المعركة الدامية بين الاسلام والجاهلية .

والامر الرائع من هـذه الصورة القرآنية ؛ أن القرآن يرسم السنن الإلهيـة الثابتة في نصر الانبياء عليهم السّلام في وسط الإطار الذي يرسم فيـه صورة من المعركة الدامية ... فيقرن صورة المعركة الدامية الحامية الـوطيس الباعثة على القلق والخوف والارتباك ،

بصورة السنن الإلهية الثـابتة والباعثة علي الاطمئنان والثقـة ، ويستخرج هذه الصورة من تلك وفي جو واحد .

قال تعالى : ﴿... وتودّون أنَّ غير ذات الشَّـوكة تكون لكم ويريـد اللّه أن يحقَّ الحقَّ بكلمـٰته ويقطـع دابـرَ الكـٰفرين*ليحقَّ الحـقَّ ويُبطـل البـٰطل ولـو كـره المجرمون﴾ . (الانفال : ٧و٨)

ففي أجواء ذات الشوكة ، وعلى طريق ذات الشوكة ، وفي الطريق الشائك الوعر يرسم القرآن الكريم هذه المشيئة الإلهية الثابتة والمطمئنة .

قال تعالى : ﴿ويريد اللّه أن يحقَّ الحقَّ بكلمـٰته ويقطع دابرَ الكـٰفرين ...﴾ .

وتأملوا فـي هذه الصورة الثانية التي يقتـرن فيها الألم بالراحة ، والقلـق-في جو المعركة-بالثقة والاطمئنان بالله تعالى وسننه ، واليأس بالرجاء والامل :

قال تعـالى : ﴿ولا تهنوا فـى ابتغاء القوم إن تكـونوا تألمون فـإنَّهم يألمـون كما تألمون وترجون من اللّه ما لا يرجون وكان اللّه عليماً حكيماً﴾ . (النساء : ١٠٤)

وأخيراً تـأملوا في هـذه الصورة القرآنية الـرائعة التي تمتـزج فيها القروح والـدماء والآلام بالاستعلاء والثقة المطلقة بنصر الله تعالى والاطمئنان الكامل بسننه تعالى في وسـط المعركـة وغبـارها المتصـاعـد وصرخـات الكـر والفر والالام ، والانتصـارات والنكسات .

قال تعالى : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين*إن يمسَسكم قـرحٌ فقـد مـسَّ القَـوم قَـرح مثلـه وتلـك الأيـٰـمُ نـداولهـا بيـن النّـاس ...﴾ . (آل عمران : ١٣٩و١٤٠)

وطرح السنـن الالهية فـي صراع الانبيـاء عليهـم السّـلام والـدعاة مـع أئمة الكفـر والجاهلية ، يرسم-أولاً-للانبياء عليهم السّلام والدعـاة خط السيـر والتحرك السيـاسي بشكل دقيق ويشخص لهم مواضع أقدمهم فـي هذه المسيرة الرسالية الكبرى وساحة الصـراع والعمـل وساحـة العـدو وشـروط النصـر وطـريقة الاستعـلاء النفسـي علـى إنتكاسـات المسيرة ، ويطمئنهم-ثـانياً-في حلبة الصـراع بالنتيجة الحتميـة والنصر

الالهي ، وإن الانسان المؤمن العالم ليحتاج في ساحة الصراع وفي مواجهة العدو-وعندما تشتد هجمات العدو ويتأزم الموقف-الى أن يطمئنه الله تعالى على لسان أنبيائه وملائكته بعاقبة المعركة ونتيجة الامر وسنن الله تعالى في هذا الصراع .

وعندما نستعرض كتاب الله ، نجد أن هذه السنن الالهية التي يرسمها القرآن الكريم واحدة في حياة ودعوة ومواجهة الانبياء والمرسلين جميعاً ، ولا يختلف في ذلك رسول عن رسول .

ووحدة السنن الالهية والعاقبة والنتيجة في حياة الانبياء عليهم السّلام ودعواتهم تكشف عن وحدة الخط الرسالية ، واسلوب الدعوة والمواجهة في حياة الانبياء عليهم السّلام وعملهم ، كما تكشف-في نفس الوقت-عن السنخية والتشابه العجيب فيما بين أئمة الكفر والجاهلية في مواجهة الانبياء عليهم السّلام ومشاكستهم وإثارة المتاعب في وجوههم . فالانبياء عليهم السّلام يدعون أقوامهم الى نبذ عبادة الاصنام ، ونبذ الشرك ونبذ عبادة الطاغوت والتحرر من الهوى ، ويدعونهم الى العبودية لله تعالى وإمتثال أحكامه والتسليم له في كل شيء ... ويصرون على ذلك . ويواجه المشركون هذه الدعوة بالصدود والاعراض والتشكيك والتكذيب والاستهزاء والاستخفاف ، وكل الوسائل الممكنة لأفشال هذه الدعوة ومصادرتها .

ويدخل الطرفان «الطرف الرباني والطرف الجاهلي» في صراع عنيف من أعنف ما يعرفه الانسان من صراع في تاريخه ، وعند ذلك تنتظم السنن الالهية في هذا الصراع الحضاري بالشكل التالي :

١ - الابتلاء .

٢- الاستدراج .

٣- الهلاك .

فيبتليهم الله تعالى-أولاً-بمختلف أنواع البلاء لعلهم يضرعون ويعودون الى الله ويكفون عن غيهم وضلالهم ، فاذا استمروا في طيشهم وغيهم إستدرجهم الله تعالى-ثانياً-بألوان النعم حتى ينسوا الله سبحانه ويتمادوا في غرورهم وطيشهم .

ثم -ثالثاً- يصب الله تعالى عليهم العذاب صبّاً ويهلكهم بعد أن أنذرهم وابتلاهم وبعد أن استنفذ الرسل معهم الوسائل الممكنة في هدايتهم وتوجيههم، وبعد أن تستنفذ الوسائل التكوينية بالابتلاء إمكانات توجيههم وهدايتهم ... فينزل الله عليهم العذاب ويهلكهم وتسقط هذه الحضارات الجاهلية سقوطاً نهائياً.

قال تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبيّ إلاّ أخذنا أهلها بالبأساء والضَّرّاء لعلَّهم يضّرّعون*ثمَّ بدّلنا مكان السَّيّئة الحسنةَ حتَّىٰ عفَوا وقالوا قد مسَّ ءَاباءنا الضَّرّاء والسَّرّاء فأخذنٰهم بغتةً وهم لا يشعرون*ولو أنَّ أهلَ القرىٰ ءَامنوا واتَّقَوا لفتحنا عليهم بركٰتٍ من السَّماء والأرض ولكن كذَّبوا فأخذنٰهم بما كانوا يكسبون﴾. (الاعراف: ٩٤-٩٦)

وقال تعالى: ﴿وما أهلكنا من قريةٍ إلاّ لها منذِرون*ذكرىٰ وما كنّا ظٰلمين﴾. (الشعراء: ٢٠٨و٢٠٩)

وقال تعالى: ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صٰعِقةً مثل صٰعِقةِ عاد وثمود*إذ جاءتهم الرُّسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألاّ تعبدوا إلاّ اللّه قالوا لو شاء ربُّنا لأنزل ملٰئكةً فإنّا بما أرسلتم به كٰفرون*فأمّا عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحقِّ وقالوا من أشدُّ منّا قوَّة أولم يروا أنَّ اللّه الّذي خلقهم هو أشدُّ منهم قوَّة وكانوا بآيٰتنا يجحدون*فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيّامٍ نحِساتٍ لنذيقهم عذاب الخزي في الحيوٰة الدُّنيا ولعذاب الآخرة أخزىٰ وهم لا يُنصرون*وأمّا ثمودُ فهدينٰهم فاستحبّوا العمىٰ علَى الهدىٰ فأخذَتهم صٰعِقَة العذاب الهُون بما كانوا يكسبون﴾. (فصلت: ١٣-١٧)

وقال تعالى: ﴿وكأيِّن من قرية عَتَت عن أمر ربِّها ورسله فحاسَبنٰها حساباً شديداً وعذَّبنٰها عذاباً نكراً*فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً *أعدَّ اللّه لهم عذاباً شديداً فاتَّقوا اللّه يٰأولي الألبٰب ...﴾. (الطلاق: ٨-١٠)

وقال تعالى: ﴿وإن يكذِّبوك فقد كذَّبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود*وقوم إبراهيم وقوم لوط*وأصحٰب مدين وكُذِّب موسىٰ فأمليت للكٰفرين ثمَّ أخذتُهم

فكيف كان نكير*فكأيِّن من قريةٍ أهلكنٰها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معَطَّلةٍ وقصرٍ مشيد*أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو ءاذان يسمعون بها فإنَّها لا تعمَى الأبصٰر ولكن تعمَى القلوب الَّتي في الصُّدور*ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف اللّه وعده وإنَّ يوماً عند ربّك كألف سنةٍ ممّا تعُدّون*وكأيِّن من قرية أمليتُ لها وهي ظٰلمة ثمَّ أخذتُها وإليّ المصير﴾ . (الحج : ٤٢-٤٨)

وقال تعالى : ﴿ولقد كذَّب أصحٰبُ الحجر المرسلين*وءاتينٰهم ءايٰتنا فكانوا عنها معرضين*وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً ءامنين*فأخذَتهُم الصَّيحة مصبحين*فما أغنىٰ عنهم ما كانوا يكسبون﴾ . (الحجر : ٨٠-٨٤)

وقال تعالى : ﴿يٰحسرةً على العباد ما يأتيهم من رسول إلاّ كانوا به يستهزءون*ألم يرَوا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنَّهم إليهم لايرجعون﴾ . (يس : ٣٠و٣١)

وتنجلي هذه المعركة الحامية عن سقوط الحضارات الجاهلية المعادية لدعوة الله وانتصار الانبياء والرسل عليهم السّلام .

قال تعالى : ﴿كتب اللّه لأغلبنّ أنَاْ ورسلي إنَّ اللّه قويٌّ عزيزٌ﴾ . (المجادلة : ٢١)

وقال تعالى : ﴿وإن كادوا ليستفزّونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلٰفَك إلاّ قليلاً*سنَّة مَن قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنَّتنا تحويلاً﴾ . (الاسراء : ٧٦و٧٧)

وقال تعالى : ﴿إنّا لننصر رسلنا والَّذين ءامنوا فى الحيوٰة الدُّنيا ويوم يقوم الأشهٰدُ﴾ . (المؤمن : ٥١)

وقال تعالى : ﴿ولقد كتبنا في الزَّبور من بعد الذِّكر أنَّ الأرضَ يرثها عباديَ الصّٰلحون﴾ . (الانبياء : ١٠٥)

وقال تعالى : ﴿وعد اللّه الَّذين ءامنوا منكم وعملوا الصّٰلحٰت ليستخلفنَّهم فى

الأرض كما استخلف الَّذين من قبلهم وليُمَكّنَنّ لهم دينهم الَّذِى ارتضىٰ لهم وليُبدِّلنَّهم من بعد خوفهم أمناً﴾ . (النور: ٥٥)

وكما لا ينـزل العذاب إلا بعـد أن تستنفذ الـوسائل التشـريعية والتكـوينية كـل الامكانات في هـداية المشركين، كذلك لا يـأتي النصر عادة حتى يبلغ الـرسل ومن حولهم حـد اليأس، ويبلغ الابتلاء أقصاه، وتستنفـذ الوسائل التكوينية بـالابتلاء كل الامكانات الموجودة فـي تكامل وتنامي هذه المسيرة الربانيـة من خلال طول المحنة وطول الابتـلاء والمعانـاة... حتى إذا بلغ الامـر أقصاه، وامتلأ الانـاء بالبـلاء... نزل عليهم النصر مرة واحدة كما ينهمر الغيث من السماء.

قال تعـالى: **﴿حتّىٰ إذا استيـأسَ الرُّسل وظنّـوا أنَّهم قد كذبـوا جاءهم نصـرنا فنُجّيَ من نشاء ولا يُرَدُّ بأسنا عن القوم المجرمين﴾** . (يوسف: ١١٠)

وحدة التصديق والقبول

عندما يستعرض الانسان آيات القرآن الكريم عن الانبياء عليهم السّلام، ويقرأ سيرة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، فإن أقوى إنطباع يحملـه هو: أن الانبياء عليهم السّلام، على إمتداد التـاريخ، أسرة واحدة متفاهمـة فيما بينها متفقة على رأي واحـد ورسالة واحدة بمراحل مختلفة متعددة يتبادلون فيمـا بينهم الاحترام الصادق باقصى درجات الاحترام... يبشر السابق منهم باللاحق ويصدق اللاحق منهم السابق.

ولا يمكن أن يكون كل هـذا التصديق والتبشير والاحترام والتوقيـر فيما بين هذه المجموعـة المشخصة مـن الانبياء عليهم السّـلام، أمـراً متكلفاً أو مصطنعـاً. والـذي يستعرض السيرة النبويـة يجد أن هذا الاحترام والتوقير كان يجـري بصورة طبيعية وغير متكلفة ومن دون تصنع أو تكلف.

فقد روى البخاري عن أبـي هريرة، قال: بينما يهودي يعـرض سلعته أعطى بها شيئاً كرهه، فقال: لا والذي إصطفى موسـى على البشر، فسمعه رجل من الانصار، فقام فلطم وجهه، وقال: تقول؛ والذي اصطفى موسى على البشر والنبي صلّى الله عليه

وآله وسلّم وسلم بين أظهرنا؟. فذهب اليه، فقال: أبا القاسم؛ إن لي ذمة وعهداً فما بال فلان لطم وجهي. فقال: لِمَ لطمتَ وجهه؟. فذكره، فغضب النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم حتى رئي في وجهه، ثم قال: لا تفضلوا بين أنبياء الله فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الارض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث، فاذا موسى آخذ بالعرش فلا أدري أحُوسِبَ بصعقته يوم الطور أم بعث قبلي، ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متي.[1]

والذي يتأمل في آيات القرآن الكريم التي تذكر بأنبياء السلف عليهم السّلام وهي كثيرة -في جو من التوقير والاحترام والتكريم... يطمئن الى أن هذه السلسلة من الانبياء التي يشير اليها القرآن الكريم كثيراً، هي أسرة واحدة، متفقة، متفاهمة، مترابطة، متصلة بمبدأ واحد، ونشير-هنا-الى البعض من هذه الآيات:

١- قال تعالى: ﴿واذكر في الكتٰب إسمٰعيل إنَّه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيّاً *وكان يأمر أهلَه بالصَّلوٰة والزَّكوٰة وكان عند ربِّه مرضيّاً﴾. (مريم: ٥٤و٥٥)

٢- ﴿ولقد ءَاتينا موسىٰ وهٰرون الفرقانَ وضياءً وذكراً للمتَّقين﴾. (الانبياء: ٤٨)

٣- ﴿واذكر في الكتٰب إبراهيم إنَّه كان صدّيقاً نبيّاً﴾. (مريم: ٤١)

٤-﴿إنَّ إبراهيم كان أمَّةً قانتاً للّه حنيفاً ولم يك من المشركين﴾. (النحل: ١٢٠)

٥- ﴿واذكر عبدنا داوُ,دَ ذا الأيد إنَّه أوّاب﴾. (ص: ١٧)

٦- ﴿وزكريّا ويحيىٰ وعيسىٰ وإلياس كلٌّ من الصّٰلحين﴾. (الانعام: ٨٥)

٧- ﴿واذكر في الكتٰب إدريس إنَّه كان صدّيقاً نبيّاً *ورفعنٰه مكاناً عليّاً﴾. (مريم: ٥٦و٥٧)

٨- ﴿واذكر إسمٰعيل واليَسَعَ وذا الكفل وكلٌّ من الأخيار﴾. (ص: ٤٨)

(١) صحيح البخاري بهامش فتح الباري ٦/ ٣٢٥، و٦/ ٣١٨-٣١٩، و٥/ ٥٢، و٨/ ٢٢٨، و١٢/ ٢٣٣، و١٣/ ٣٧٨، و١١/ ٣١٨.

٩- ﴿ولوطاً ءاتينـٰه حكماً وعلماً﴾ . (الانبياء : ٧٤)

١٠- ﴿واذكر في الكتـٰب موسىٰ إنَّه كان مخلَصاً وكان رسولاً نبيّاً﴾ . (مريم : ٥١)

١١- ﴿ ووهبنا لداوُ,دَ سليمـٰن نعمَ العبد إنَّه أوّابٌ﴾ . (ص : ٣٠)

١٢- ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحـٰق ويعقوب أولى الأيدي والأبصـٰر...﴾ . (ص : ٤٥)

وهؤلاء الانبياء عليهم السّلام أسرة واحدة-كما قلنا-يرتبط بعضهم ببعض، ويتصلون جميعاً بالله تعالى .

وتأكيداً لوحدة هذه الاسرة، واتصال أعضائها جميعاً-من دون فرق-بالله تعالى، لا نفرق بينهم في الاتصال بالله، والصدق في القول، والبلاغ من جانب الله تعالى .

فقال تعالى : ﴿ءَامن الرَّسول بما أنزل إليه من ربّه والمؤمنون كلٌّ ءَامن باللّه وملـٰئكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحدٍ من رسله﴾ . (البقرة : ٢٨٥)

ومن عجيب إهتمام القرآن في إبراز عمق الوحدة في أسرة النبوة والرسالة، أن يعتبر التفريق بين أعضاء هذه الاسرة، من الكفر برسالة الله جميعاً .

فقال تعالى : ﴿إنَّ الَّذين يكفرون باللّه ورسله ويريدون أن يفرِّقوا بين اللّه ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتَّخذوا بين ذٰلك سبيلاً*أولئك هم الكـٰفرون حَقاً وأعتدنا للكـٰفرين عذاباً مهيناً*والَّذين ءَامنوا باللّه ورسله ولم يفرِّقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان اللّه غفوراً رحيماً﴾ . (النساء : ١٥٠-١٥٢)

فالكفر ببعض هذه الاسرة، كفر بهذه الاسرة كلها، ولا يكفي أن يكون الانسان مؤمناً بالله ورسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم ليكون مسلماً، وإنما يجب أن يكون مؤمناً بالله ورسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم وبكل الانبياء والمرسلين الذين أرسلهم الله تعالى الى الناس، حتى يكون مسلماً .

قال تعالى: **﴿قل ءَامنّا باللّـه وما أنزل علينا وما أنزل علىٰ إبراهيم وإسمـٰعيل واسحـٰق ويعقوب والأسبـاط وما أوتيَ موسـىٰ وعيسىٰ والنَّبيّون من ربِّهـم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾** . (آل عمران: ٨٤)

والآيـات التي بهـذا المضمون كثيـرة في كتـاب اللـه تعالـى، وتكشف لـذوي البصائر عن عمـق إهتمام القرآن الكريم بربـط أطراف هذه الاسرة الربانيـة على وجه الارض.

ثم نمضي في التأمل في هذا الفصل من آيـات الله، فنلتقي بالترابط الوثيق بين أنبياء الله عليهم السّلام في التصديق والتبشير ببعض، وليـس فقط في الاحترام والتوقير والتكريم.

فالسابق منهم كان يبشر باللاحـق، واللاحق كان يصدق السابق، والكل متفق في مبـادي الدعوة والرسـالة، لا يناقـض أحدهـم الآخـر، ولا يحل أحدهم مـا يعقد غيره.

تأملوا في هذه الجملة من آيـات «التبشير» و «التصديق» فيما بين الانبياء عليهم السّلام.

١- قال تعـالى: **﴿الَّذين يتَّبعـون الرّسول النَّبيَّ الأمِّـيَّ الَّذي يجدونه مكتـوباً عندهـم في التَّـورٰة والإنجيـل يأمرهـم بالمعـروف وينهىٰهم عـن المنكر ويحـلُّ لهم الطَّيِّبـٰت ويحرِّم عليهـم الخبـٰئِث ويضع عنهم إصـرهم والأغلـٰل الَّتي كـانت عليهم فـالَّـذيـن ءَامنــوا بـه وعـزَّروه ونصـروه واتَّبعـوا النّـور الَّـذي أُنــزل معـه أولئـك هـم المفلحون﴾** . (الاعراف: ١٥٧)

٢- وقال تعـالى: **﴿وإذ قال عيسَـى ابنُ مريم يـٰبني إسراءيل إنّي رسـول اللّه إليكـم مصدِّقـاً لمـا بيـن يديَّ مـن التَّـورٰة ومبشِّـراً بـرسول يـأتـي مـن بعدِى اسمـه أحمد﴾** . (الصف: ٦)

٣- وقال تعالىٰ: **﴿وقفَّينا على ءَاثـٰرهم بعيسَى ابن مريـم مصدِّقاً لما بين يديه من التَّورٰة وءَاتينـٰه الإنجيل فيه هدًى ونورٌ ومصدِّقـاً لما بين يديه من التَّـورٰة وهدًى**

وموعظةً للمتَّقين﴾ . (المائدة : ٤٦)

والكتب الإلهية متصادقة فيما بينها ، فيصدق اللاحق منها السابق ، ويهيمن عليه، وليس فيما بين هذه الكتب أي تعارض أو تناقض أو إختلاف. وما يتراءى لنا من الاختلاف فهو في تفاصيل الاحكام والتشريعات بما يتطلّبه نمو الانسان وتكامله التاريخي . وكأنَّ الكتب الالهية-من هذه الناحية-حلقات من رسالة واحدة نظمت لمراحل مختلفة من حياة الانسان وتاريخه ، كل حلقة لاحقة منها تحتفظ باصول ومبادىء الحلقات السابقة وتنفرد بما تتطلبه المرحلة الجديدة ، فتكون كل حلقة منها مصدقة لما قبلها وناسخة ومهيمنة عليها ، وهو معنى تصديق القرآن الكريم لما قبله من الكتب وهيمنته عليها .

قال تعالى : **﴿وأنزلنا إليك الكتٰب بالحقِّ مصدِّقاً لما بين يديه من الكتٰب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل اللّه ولا تتَّبع أهواءهم عمّا جاءك من الحقِّ لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً﴾** . (المائدة : ٤٨)

وقال تعالى : **﴿نزَّل عليك الكتٰب بالحقِّ مصدِّقاً لما بين يديه وأنزل التَّورٰة والإنجيل﴾** . (آل عمران : ٣)

وهذا التصادق والتوافق كما يجري بين القرآن والكتب الالهية من قبله يجري-أيضاً-بين الانجيل والتوراة وبين التوراة وما قبلها من كتب الله .

قال تعالى : **﴿وءَاتينٰه الإنجيل فيه هدًى ونورٌ ومصدِّقاً لما بين يديه من التَّورٰة وهدًى وموعظةً للمتَّقين﴾** . (المائدة : ٤٦)

ومن أعمق مظاهر هذا الترابط والوحدة والانسجام فيما بين أسرة التوحيد؛ إن القرآن الكريم يعتبر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم-وهو أشرف الرسل وخاتمهم-من ملة إبراهيم عليه السّلام

فقال تعالى : **﴿قل إنَّني هدٰني ربّي إلىٰ صراط مستقيم ديناً قِيَماً ملَّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾** . (الانعام : ١٦١)

وقال تعالى : **﴿ثمَّ أوحينا إليك أن اتَّبع ملَّة إبراهيم حنيفاً وما كان من**

المشركين﴾ . (النحل : ١٢٣)

وقال تعالى : **﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصـٰرىٰ تهتدوا قل بل ملَّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾** . (البقرة : ١٣٥)

وبعد ، فلا يخطرن على بال أحد أن هذا التكريم والتوقير للانبياء عليهم السّلام ، والتأكيد على الترابط الوثيق بهذه الاسرة الربانية ... عمل سياسي يهدف الى كسب اليهود والنصارى الى الاسلام . فإن القرآن الكريم في الوقت الذي يكرم فيه موسى وعيسى عليهما السلام ويرفع لهما ذكراً فيما بين المسلمين ، فإنه كان يفند الافكار والاراء التي كان يعتنقها اليهود والنصارى ، ويشجبها .

فقال تعالى : **﴿وقالت اليهود والنَّصـٰرىٰ نحن أبناء اللّه وأحباؤه قل فَلِمَ يعذِّبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممَّن خلق ... ﴾** . (المائدة : ١٨)

وقال تعالى : **﴿لقد كفر الَّذين قالوا إنَّ اللّه ثـٰلِثُ ثلـٰثَة﴾** . (المائدة : ٧٣)

وقال تعالى : **﴿لقد كفر الَّذين قالوا إنَّ اللّه هو المسيحُ ابنُ مريم﴾** . (المائدة : ٧٢)

وقد غضب النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم عندما رأى في يد عمر بن الخطاب أوراقاً من بعض الكتب الالهية التي حرفها أهل الكتاب ونسخه القرآن الكريم .

فقد روى أحمد عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب فقرأه النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فغضب فقال : أمتهوّكون[١] فيها يا ابن الخطاب ، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبركم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به ، والذي نفسي بيده لو أن موسى عليه السّلام كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني .[٢]

وهكذا نجد أن القرآن الكريم في الوقت الذي يحرص فيه على إعلان تحريف

(١) أمتهوّكون : أمتحيّرون .

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٣/ ٣٨٧ .

اليهودية والمسيحية وضلالهما وابتعادهما عن مصدر الوحي ... يحرص على احترام الانبياء واعتبارهم أسرة واحدة مترابطة ومتفقة في السر والعلن، ومتماسكة ... بعضهم يصدق ببعض ويبشر ببعض، وبعضهم يدعو لبعض.

ومن روائع كلام رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بهذا الصدد، ما يرويه أُمامة. قال: قلت يا رسول الله ما كان بدء أمرك. قال: دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى بن مريم.(١)

ونجد من النصوص الاسلامية إهتماماً بإبراز هذا الانسجام والوحدة في مبادىء الايمان والرسالة بين الاسلام والرسالات الالهية السابقة.

فعن أبي عبد الله عليه السّلام أنه قال: إن الله تبارك وتعالى أعطى محمداً شرائع نوح وإبراهيم وموسى عليهم السّلام والتوحيد والاخلاص وخلع الانداد والفطرة الحنفية السمحة لا رهبانية ولا سياحة.(٢)

وورد عن الامام الباقر عليه السّلام، في تفسير قوله تعالى: ﴿إنَّ أولَى النّاس بإبراهيم ...﴾.(٣)، أنه عليه السّلام، قال: هم الائمة ومن تبعهم عليهم السّلام.

وروى الكليني في الكافي عن أبي جعفر عليه السّلام، أنه قال: يمصون الثماد ويدعون النهر العظيم، قيل له: وما النهر العظيم؟ قال: رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، والعلم الذي أعطاه الله. إن الله عزوجل جمع لمحمد صلّى الله عليه وآله وسلّم سنن النبيين من آدم عليه السّلام وهلم جراً الى محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم، وقيل له: وما تلك السنن؟ قال: علم النبيين بأسره، وإن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم صيّرَ ذلك كله عند أمير المؤمنين عليه السّلام.(٤)

(١) بحار الانوار ١٦/ ٣٢١، الخصال ١/ ٨٣.

(٢) بحار الانوار ١٦/ ٣٣١، المحاسن: ٢٨٧-٢٨٨.

(٣) تفسير نور الثقلين ١/ ٣٥٣.

(٤) أصول الكافي ١/ ٢٢٢، وبحار الانوار ١٧/ ١٣٠-١٣١.

وعن أبي جعفر عليه السّلام، أنه قال: كان جميع الانبياء ومـائة ألف نبي وعشرين ألف نبي، منهم خمسة أولو العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وعليهم، وإن علي بن أبي طالب عليه السّلام كان هبة الله لمحمد صلّى الله عليـه وآله وسلّم و ورث علم الاوصياء وعلم من كان قبله، أما أن محمداً صلّى الله عليه وآله وسلّم ورث علم مَن كان قبله من الانبياء والمرسلين . (١)

وعندما نمعـن أكثر في التأمل فـي النصوص الاسلامية الواردة فـي هذا السياق نلتقي بصورة جديدة من هذه الوحدة والترابط والتلاحم بين أجزاء واطراف هذه الاسرة الرسـالية، وأن المهدي من آل محمـد عجل الله تعالـى فرجه، إذا ظهر كـان أول ما يعلنه للناس هو أنه يقع في إمتداد هذه السلسلة المباركة من الانبياء والمرسلين وعباد الله الصالحيـن، وأنه(عج) أولى بهـم، وهو عليه السّلام وارث هذه السلسلة المبـاركة وثمرة هذه الشجرة الطيبة .

فعن أبي خالد الكابلـي، قال: قال أبو جعفر عليه السّلام؛ والله لكأني أنظر الى القائم عليه السّلام ، وقد أسنـد ظهره الـى الحجر ثم ينشـد الله حقه، ثـم يقول يـا أيها الناس من يحاجني في الله فأنا أولى بالله، أيها الناس من يحاجني في آدم فأنا أولى بآدم، أيها الناس من يحاجني في نوح فأنا أولى الناس بنوح، أيها الناس من يحاجني في إبراهيم فأنا أولى الناس بإبراهيم . (٢)

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السّلام، أنه قال: إن القائم إذا خرج دخل المسجد الحرام فيستقبل الكعبة ويجعل ظهره الى المقام ثم يصلي ركعتين ثم يقوم فيقول: يا أيها الناس أنا أولى الناس بآدم، يا أيها الناس أنـا أولى الناس بإبراهيم، يا أيها الناس أنا أولى بإسماعيل، يا أيها الناس أنا أولى بمحمد صلّى الله عليه وآله وسلّم ثم يرفع يديه الى السماء فيدعو ويتضرع حتى يقع على وجهه . (٣)

(١) بصائر الدرجات: ٣٢-٣٣، وبحار الانوار١٧/ ١٣١ .

(٢) تفسير نور الثقلين١/ ٣٥٣-٣٥٤ .

(٣) بحار الانوار٥١/ ٥٩ عن الكنز.

ومن خلال هذا الاستعـراض السريع لآيات الله، والتأمـل فيها يطمئن الانسان الى أن هذه السلسلـة المباركة من الانبياء والاوليـاء وعباد الله الصالحين الـدعاة الى الله تعالى، هـي سلسلة واحدة مترابطة ومتماسكـة تبتدىء بآدم عليه السّلام وتمر بنوح وإبراهيم ومـوسى وعيسى وسائر أنبيـاء الله عليهـم السّلام، ثم يختـم الله تعالـى هذه السلسلة المباركة من الانبياء عليهم السّلام بخاتم الانبياء صلّى الله عليه وآلـه وسلّم، ويمتد من بعده أوصياؤه عليهم السّلام فـي هديـه وعلـى منهجه وطـريقـه، الـى المهدي مـن آل محمد(عج).

وإن هذه السلسلة المبـاركة «من آدم عليه السّلام الى القـائم من آل محمـد(عج) الذي بشرت به الروايات والاحاديث النبوية على نحو التواتر لدى المسلمين» سلسلة واحدة مبـاركة، وإن هـذه الشجرة الطيبة-التـي تمتد جذورهـا من أعمـاق الحضارة الربـانية وتصعـد أغصانهـا الى آفاق هـذه الحضارة علـى وجه الارض بعضهـم يرث بعض، وبعضهم يرتبط ببعض، والكل يشكلون على وجه الارض وفي تاريخ الانسان وحضارته أسرة واحدة ربانية مباركة.

ومرة أخرى نتلـو هذه الآية المباركة التي تـرسم لنا الشجرة المباركـة في حضارة الانسان بجذورها وأعماقها التاريخية وأغصانها وفروعها وثمارها.

فقال تعـالى: ﴿... ونوحـاً هدينـا من قبل ومـن ذرِّيَّته داوُ,دَ وسليمـٰن وأيّوب ويوسف وموسىٰ وهـٰرون وكذٰلك نجـزى المحسنين*وزكريّا ويحيىٰ وعيسىٰ وإلياس كـلٌّ مـن الصّـٰلحين*وإسمـٰعيل واليسع ويـونـس ولـوطـاً وكـلاً فضّلنـا علـى العـٰلمين*ومن ءَابـاءهم وذرِّيّـٰتهم وإخـوانهـم واجتبَينـٰهم وهدينـٰهم إلىٰ صـراط مستقيم*ذٰلك هدَى اللّه يهدي به من يشاء من عبـاده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون*أولئك الّذين ءَاتينـٰهم الكتـٰب والحكم والنُّبوَّة فإن يكفرْ بها هـٰؤلاء فقد وكَّلنا بهـا قـومـاً ليسـوا بهـا بكـٰفرين*أولئك الّـذيـن هَـدَى اللّـهُ فبِهُـدٰيهـمُ اقتده...﴾. (الانعام: ٨٤-٩٠)

والآية الكريمة ترسم هذه الشجرة في ثلاثة أبعاد:

١ - البعد النازل: «ومن آبائهم».

٢- البعد الصاعد: «وذرّيّاتهم».

٣- البعد الأفقي: «وإخوانهم».

وتذّكر الآية الكريمة بالمنح الالهية التي خصّ الله تعالى بها هذه الشجرة المباركة، وهي: «الكتاب، الحكم، النبوة».

ثم تبين الآية الكريمة أن الله تعالى يمد هذه الشجرة المباركة في حضارة الانسان ولا يتركها تذبل وتتساقط أوراقها وتجف جذورها.

فاذا كان هؤلاء القوم من المشركين الذين كفروا بها، فإن الله تعالى يوكل بها قوماً آخرين من عباده.

وعلى الرغم من كل المحاولات الجاهلية لإستئصال هذه الشجرة وإجتثائها من جذورها وتقطيع أغصانها وثمارها... فإن هذه الشجرة المباركة سوف تبقى مورقة ومخضرة ومثمرة، تؤتي ثمارها طيبة شهية في كل حين من تاريخ البشرية، وتبقى هذه المسيرة المباركة-التي تمتد أصولها الى نوح وآدم عليهما السلام-سائرة تشق طريقها في عباب التاريخ وخضم الاحداث، فاذا أعرض عنها هؤلاء أو أولئك أو حاولوا أن يصدوها أو يعرقلوا سيرها، فإن الله تعالى يوكل بها أقواماً مؤمنين من عباده في كل زمان، يتولونها ويمهدون لها الطريق، ويفتحون لها آفاق الحركة والعمل.

فقال تعالى: **﴿يـٰأيُّها الَّذين ءَامنوا من يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتى اللّه بقوم يحبُّهم ويحبّونه أذلَّـةٍ علَى المؤمنين أعزَّةٍ على الكـٰفرين يجـٰهدون في سبيل اللّه ولا يخافون لَومة لائم ذٰلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء واللّه واسع عليم﴾**. (المائدة: ٥٤)

الإنشـراح

الإنشراح

بسم الله الرحمن الرحيم

ألم نشرحِ لك صدرك*ووضعنا عنك وزرك*الّذي أنقض ظهرك*ورفعنا لك ذكرك*فإنَّ مع العسر يسراً*إنَّ مع العسر يسراً*فإذا فرغت فانصب*وإلى ربِّك فارغب*

«شـرح الصـدر» مـن المفاهيـم القـرآنيـة التـي ورد ذكـرها فـي القـرآن بصـورة متكررة . . .

وهي مسألة ذات صلة، بالدعوة والمعـرفة وهما مساحتان واسعتان وغنيتان من مساحات الفكر الإسلامي.

وقد حاولنـا فيما يلي أن نلقي بعض الضـوء على هذا المفهوم مـن خلال آيات القرآن الكـريم والنصوص الاسـلامية الأخرى. أسـأل الله تعالـى أن يتقبله من كـاتبه بأحسن قبوله.

حالتا الشرح والضيق

«الشرح» بمعنى البسط، وفي مقابل الشرح «الضيق» و«الحرج» يقول تعالى مخاطباً رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم:

﴿ولقد نعلم أنّك يضيق صدرك بما يقولون﴾. (الحجر: ٩٧)

ويقول تعالى مخاطباً لرسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم عندما كانت تنتابه بين حين وحين لحظات ضعف الانسان:

﴿فَلَعلّكَ تـٰرِكٌ بَعضَ ما يوحىٰ إليك وضائقٌ به صدرك﴾. (هود: ١٢)

ويقول تعالى أيضاً لنبيه في نفس الحالات:

﴿كتـٰبٌ أُنزلَ إليك فلا يَكنْ في صَدركَ حرجٌ منه لِتُنذِرَ به وذكرىٰ للمؤمنين﴾. (الأعراف: ٢)

وعن لسان موسى كليم الله عليه السّلام عندما أمره الله تعالى أن يذهب الى فرعون وقومه ليبلغهم رسالة الله... يقول القرآن:

﴿ويَضيقُ صدري ولا يَنطلقُ لِساني فأرسل إلىٰ هـٰرون﴾. (الشعراء: ١٢)

و«الشرح» و«الضيق» في الصدور، أو«البسط» و«الانقباض» في الصدور حالتان تتواردان على الصدور والقلوب.

في الحالة الأولى تتسع الصدور والقلوب، فتزخر بالمعرفة والنور واليقين، وتتحمل من الابتلاءات والمصائب والهموم ما لا قبل للانسان بها، وفي الحالة الثانية تضيق القلوب والصدور، حتى لا تكاد تحمل شيئاً من المعرفة واليقين والنور، وشيئاً من الابتلاءات والمتاعب التي تواجه الانسان في مسيرته وحركته الى الله.

و«الشرح» و«الضيق» حالتان حقيقيتان للصدور تتواردان على الصدور، فتغطي الأولى الصدور سعة وبسطاً وتحملاً وقدرة على الاستيعاب.

وكل واحد منا يجد نفسه في منعطفات حياته كلاً من هاتين الحالتين بصورة حقيقية، فيجد في نفسه إقبالاً وسعة وقدرة على الاستيعاب أحياناً، ويجد في نفسه أحياناً ضيقاً وانقباضاً...

والشرح والضيق حالتان تتواردان على جريان حركة الانسان ومساره الى الله تعالى ... ولهما تأثير إيجابي وسلبي على حركة الانسان. فاذا عرض «الشرح» و«البسط» على حركة الانسان الى الله، أسرع الانسان في مسيره وعروجه الى الله، واذا عرض الآخر على حركة الانسان الى الله أبطأ الانسان في حركته وعروجه الى الله، ولعله يعرقل حركة الانسان ويوقف صعوده وعروجه الى الله بصورة نهائية.

ولذلك فهما حالتان خطيرتان في حياة الانسان، لهما تأثير على مصير الانسان وعاقبته، وعلى سعادته وشقاوته، وحركته الى الله تعالى وابتعاده عن الله ... وفيما يلي نحاول أن نتناول هذين المفهومين ببعض الشرح وأن نقف عندها بعض الوقت.

الشرح والضيق تنتابان صدور الناس في حركتهم الى الله من موضعين إثنين، وليس من موضع واحد، من الابتلاء وما يصيب العاملين في سبيل الله من هموم ومتاعب في دعوتهم الى الله تعالى، فتتسع صدور لما يواجه أصحابها من المجابهة والمواجهة وتضيق صدور فتنحسر عن ساحة المواجهة والمعركة ... وهذا هو أحد الموضعين ...

والموضع الثاني من إنشراح الصدور وضيقها في المعرفة التي يرزق الله تعالى عباده ... فتنشرح صدور للمعرفة والنور النازل على الانسان من لدن الله تعالى، فتستوعب من اليقين والبصيرة والهدى والنور الكثير، وتضيق صدور فلا تنال من اليقين والنور الذي يؤتيه الله تعالى عباده نصيباً. وهذا هو الموضع الثاني.

ونحن نتحدث-إن شاء الله-عن كل من هذين الموضعين:

١ - شرح الصدور وضيقها في الابتلاء

أكثر ما ينتاب العاملين من ضيق في الصدر وحرج عندما يدعوهم الله تعالى ورسوله للنهوض بأعباء الدعوة الى الله في الأوساط الجاهلية، فيقدرون ما يواجهون من متاعب جمة في صراع الطاغوت وجنده وحزبه، وما تتطلبه هذه المواجهة من تضحية وعمل وكدح وجهاد طويل ومعاناة مريرة، وما يحول بينهم وبين دعوة الناس

الى الله من عقبات صعبة ... أن مثلهم في هذه الحركـة كمن يعاكس تياراً قوياً جارفاً وحده، ويقوم لوحـده بمعاكسة هذا التيار، وتغيير مجراه، وانهـم لمخلصون صادقون وأنبياء ومرسلون، ولكن ضخامة المهمة والمسؤولية تثير في نفوسهم المخاوف. .

وإن القرآن الكريم ليحدثنا عن قصة رسول الله موسى بن عمران عليه السّلام عندما أمره الله تعالى بالنهوض بالامر ودعوة فرعون وقومه الى الله تعالى:

﴿وإذ نادىٰ رَبّكَ موسىٰ أن ائتِ القَومَ الظّـٰلِمين*قومَ فرعونَ ألا يتَّقون*قال رَبِّ إنّي أخـاف أنْ يُكَـذِّبـونِ*ويضيـقُ صـدري ولا ينطلـقُ لسـانـي فـأرسـل إلىٰ هـٰرونَ﴾. (الشعراء: ١٠-١٢)

فيخاف موسى بن عمران عليه السّلام من أن يُكذبه قوم فـرعون ويحاربوه، فيضيق بذلك صدره...

وها هو موسى عليه السّلام وأخوه هـارون عندما أمـرهما الله تعـالى أن يذهبـا الى فرعون يفصحان عن مخاوفهما من هذه المسؤولية الخطيرة...

﴿إذهبا إلىٰ فرعونَ إنّه طغىٰ*فقُولا لَهُ قَـولاً لَيِّناً لَعلَّهُ يَتذكَّرُ أو يخشىٰ* قالا رَبَّنا إنّنا نخاف أن يَفرُطَ علينا أو أن يطغىٰ*قال لاتخافا إنَّني معكما أسمعُ وأرىٰ﴾.

ونقرأ في سورة هود من قصة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عندما نهض بهذا الامر بأمر من الله تعالى وواجه تحديات قريش الصعبة:

﴿فَلعلَّكَ تـٰرِكٌ بعضَ ما يوحىٰ إليك وضـائقٌ به صَدرُكَ أن يقولوا لَولا أُنزِلَ عليه كَنزٌ أو جاء معهُ مَلكٌ إنَّما أنتَ نذير واللَّه على كلِّ شيءٍ وكيل﴾. (هود: ١٢)

فنرى أن رسـول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يضيـق صدره بما كـان يواجـه من تحديات قوية من عتاة قريش.

وها هو مشهد آخر مـن القرآن الكريم عن هذه الحالة التـي كانت تعتري رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بين حين وآخر في مواجهة جبابرة قريش وأساليبهم اللئيمة.

﴿فاصـدَع بما تُؤمَر وأعـرض عن المشركينَ*إنّـا كَفَيـنـٰكَ المستهزءينَ*الّـذينَ يجعلونَ مع اللّـهِ إلـٰهاً ءَاخـر فسوف يعلمـونَ* ولقد نعلـم أنّك يضيـقُ صدرك بمـا

يقولونَ*فسبِّح بحمدِ رَبّك وكن من السّٰجدينَ*واعبُد رَبّكَ حتّىٰ يأتيَكَ اليقينُ﴾. (الحجر: ٩٤-٩٩)

وأن الله تعالى يشرح صدر رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم من هذا الضيق بوعد وتعليم... أما الوعد فهو «إنا كفيناك المستهزئين»، وأما التعليم فهو «فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين».

ويخاطب الله تعالى نبيه، ويأمره ألا يضيق صدره وألا يصيبه حرج في صدره من النهوض بأمر الانذار بهذا الكتاب في هذا الوسط الجاهلي الشاحن بالتمرد والعصيان، فيقول تعالى:

﴿كتٰبٌ أُنزِلَ إليكَ فلا يكن في صدركَ حرجٌ منه لِتُنذِرَ به وذكرىٰ للمؤمنينَ﴾. (الأعراف: ٢)

واذا كان الأمر على هذه الحالة في رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وفي كليم الله موسى بن عمران وأخيه عليهما السّلام فماذا ترى نصيب الدعاة من غير الأنبياء والرسل عليهم السّلام من ضيق وحرج في الصدور وضعف في النفوس، حينما ينهضون بأمر الدعوة الى الله وسط هذه الحضارة الجاهلية المتمردة على الله ورسوله.

شرح صدور الأنبياء عليهم السّلام

ولذلك فإن أول ما يحتاجه الأنبياء عليهم السّلام والدعاة الى الله من غير الانبياء في القيام بهذا الأمر هو «شرح الصدر» والخلاص من الضيق الذي ينتاب صدورهم عند النهوض بهذا الأمر وفي مواجهة الجاهلية والطاغوت...

ونقرأ في كتاب الله إن أول ما طلبه موسى عليه السّلام من الله تعالى عندما قال له الله:

﴿إذهب إلىٰ فرعون إنَّه طغىٰ... قال رَبِّ اشرَح لي صدري* ويسِّر لي أمري* واحلُل عُقدةً منْ لساني* يفقهوا قولي*واجعل لي وزيراً من أهلي*هٰرون أخي*أشدُد به أزري*وأشرِكهُ في أمري*كي نُسَبّحَكَ كثيراً*ونذكرَكَ كثيراً*إنّكَ

كنت بنا بصيراً*قال قد أُوتيتَ سؤلَكَ يـٰموسىٰ﴾ . (طه : ٢٦-٣٧)

وشرح الصدر هنا فـي مواجهة الابتلاء والمعاناة والصراع المريـر، الذي يواجهه عليه السّلام من دعوة فرعون وقومه الى الله تعالى .

وآية ذلك خطاب الله تعـالى لموسى عليه السّلام بدعوة فرعـون وطلب موسى عليه السّلام من الله تعالى بتيسير الأمر له في هذه المهمة وأن يرسل معه أخاه هارون، وُيشد به أزره .

ودعاء موسى عليه السّلام دعاء عبد خبير بحاجته، دقيق فـي طلبه، فهو يدعو الله تعـالى مـن ناحيـة أن يشـرح صدره «رب اشـرح لـي صدري»، ويبسـط له صـدره، فيتحمل ما يـواجهه من ألوان المعـاناة والابتلاء، ويدعو اللـه تعالى في الفقـرة الثانية عقيب ذلك مبـاشرة، بأن يخفف له الأمـر ولا يحمله ما لا يطيق «ويسـر لي أمري» . وهو دعـاء عبد خبير بضعفـه وعجزه بين يـدي الله وحـاجته الى تـأييد الله تعـالى، ودعمه في مثل هذه المَهَمة الشاقة العسيرة ...

ونقرأ في القرآن الكريم أيضاً إن من أوائل تـأييد الله تعالى لعبده ورسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم هو «شرح الصدر» الذي من الله تعالى على نبيه، يقول تعالى :

﴿ألـم نشرح لك صدرَك*ووضعنا عنـك وزرَك*الّذي أنقض ظهرَك*ورفعنا لك ذكرَك*فـإنَّ مع العُسـر يُسراً*إنَّ مع العُسـر يُسراً*فـإذا فرغتَ فـانصَب*و إلـىٰ رَبّكَ فارغب﴾ . (الإنشراح : ١-٨)

وشرح الصدر هنا في مواجهة الابتلاء والعسر والشدة التي واجهها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم من دعوة الناس الـى الله . وآية ذلك ما يأتي فيما بعـد ذلك ضمن هذه السورة:

﴿فإنَّ مع العسر يسراً*إنَّ مع العسر يسراً﴾ .

فلا يـدع الله تعالى رسـوله صلّى الله عليه وآلـه وسلـم أمام هـذه المسؤوليـة الضخمة وحده، وإنما يشرح صدره لما يواجهه من هموم وابتلاءات ومتاعب ومحن وعقبات، حتى لا يضيق بشـيء من ذلك، وحتى يتحمل كـل ذلك، ويستوعبه، ثـم يعده بأن

يجعل له من بعد كل عسر يسراً، مؤكداً ذلك مرة بعد أُخرى : «فإن مع العسر يسراً* إن مع العسر يسراً» .

واذا شرح الله تعالى صدر عبده، فلا ينال منه شئ، ولا يعجزه شئ، ولا يضيق بشيء ... وأن أول فشل الانسان في مهمته هو فشله في نفسه، وأول ضعفه ليس في ساحة عمله، وإنما هو في ساحة نفسه، فاذا عجز في هذه عجز في تلك، واذا انتصر في هذه انتصر في تلك .

و«شرح الصدر» شأن من شأن الله تعالى ، والله تعالى هو وحده الذي يشرح صدر من يشاء من عباده، ولا شأن للانسان فيه . ولولا أن يشرح الله تعالى صدر عباده، لما وسع الانسان أن يتحمل أذى هذه الابتلاءات والمصائب والهموم . وأن الانسان لتشوكه الشوكة وتلسعه الحشرة من هوام الارض فتسلبه الراحة والنوم ... فاذا وقع تحت أيدي الجلادين من جلاوزة الطاغوت ثبت كالجبال، لا يرضخ ولا ينثني ، ولا يستجيب، ولا يقر، ولا يذعن، مهما ينالوا منه ... ومهما يصبون عليه العذاب صباً .

وأن الانسان ليواجه مشكلة من هذه المشاكل الصغيرة داخل البيت ، فيعجز عن مواجهتها ، ثم يأمره الله تعالى فينهض بأمر الدعوة الى الله وسط هذه الجاهلية المتمردة عن أمر الله ، وبين هؤلاء المستكبرين والطغاة ثابتاً كالجبال، لا ينال من همته أذى أو سوء .

والقرآن واضح وصريح في نسبة شرح الصدر الى الله تعالى : «ألم نشرح لك صدرك» في مقام الامتنان من الله تعالى على عبده ورسوله : «رب اشرح لي صدري» في مقام الدعاء والسؤال من العبد بين يدي ربه سبحانه .

وفي كل مورد يستعمل القرآن الكريم هذه الكلمة بهذا المعنى أو بمعنى شرح الصدور للاسلام ينسبه الى الله تعالى .

شرح الصدر بالكفر

وهناك نحو آخر من شرح الصدر، في مقابل هذا النحو من الشرح، وهو شرح

الصدر للكفر، لا ينسبه القرآن الى الله، وإنما يقوم به الانسان نفسه، وهو أيضاً بمعنى البسط للصدر، ولكن بسطاً يمكن الصدور من إستيعاب كل ألوان الضلالة والحقد واللجاج والعناد والبغضاء والمكر والخبث ...

ولا شك أن إستيعاب هذه الظلمات جميعاً يحتاج الى سعة وبسط في الصدور، كما يحتاجه إستيعاب الحق والنور، والابتلاءات والمحن في سبيل الله.

إلا أن هذا البسط والسعة يمكن صاحبه من إستيعاب الظلمات والشر، وذلك البسط والسعة يمكن صاحبه من إستيعاب النور والخير، يقول تعالى:

﴿من كَفر بالله من بعد إيمٰنه إلاّ من أُكرِه وقلبُهُ مَطمَئِنٌ بالإيمٰن ولكن من شَرَحَ بالكُفرِ صدراً فعلَيهم غَضبٌ من الله ولهم عذاب عظيم﴾ . . . أولئكَ الّذين طبعَ اللّه علىٰ قلوبهم وسمعهم وأبصٰرهم وأولئك هم الغٰفلون﴾. (النحل: ١٠٦-١٠٨)

وهؤلاء الذين شرحوا بالكفر صدراً هم الغافلون الذين طبع الله على قلوبهم وعلى سمعهم وأبصارهم. وهذا الشرح لا ينسبه القرآن الى الله، وإنما هو من فعل الانسان نفسه.

ومهما يكن من أمر فإن شرح الصدر لتحمل الابتلاء وهموم الدعوة والعمل والحركة الى الله تعالى شأن من شأن الله تعالى ... لا دخل للانسان فيه كما ذكرنا.

مفتاح شرح الصدور

ولئن كان شرح الصدور من فعل الله تعالى ولا شأن للانسان فيه، فإن مفتاح ذلك بيد الانسان، كسائر ما يرزق الله تعالى عباده من رزق، واذا عرف الانسان هذا المفتاح واستعمله، فان الله تعالى يشرح له صدره، ولا يناله ضيق أو حرج في الطريق الى الله، وفي تحمل هموم الدعوة الى الله، وأعباء الحركة اليه تعالى:

وقد جعل الله تعالى لذلك مفتاحين:

١- الطلب ٢- المعرفة.

وفيما يلي نشرح هذين المفتاحين في حدود علاقتهما بالقرآن.

١ - الطلب

نقصد بالطلب الحركة والدعاء وكلاهما طلب. إن الذي يتحرك ويعمل ويسعى ويحاول، يطلب، والذي يدعو الله في إنجاح مهمته وتيسير المسؤولية التي ألقاها عليه وتذليل عقبات الطريق، يطلب أيضاً.

إن الانسان يحاول ويسعى ويتحرك ويجاهد ويقاوم، فيطلب تحقيق رسالة الله تعالى في الحياة بجهده المتواضع اليسير، فاذا دعى الله تعالى أن يعينه ويأخذ بيده ويهديه ويسدده ويوفقه ويذلل له الصعاب أضاف الى حوله وقوته البسيطة حول الله تعالى وقوته العظيمة، فيكون قادراً على تحمل الأعباء الثقيلة، وعلى المضي في الطريق الطويل، وعلى القيام بالمسؤوليات الصعبة من غير غرور ولا بطر، لأنه يعلم إنما يفعل بحول الله تعالى وقوته، وليس بحوله هو وقوته، وإن كان عليه أن يضع جهده البسيط في كفه ليستنزل به حول الله وقوته. فإن الله تعالى اذا رأى الصدق من عباده في ساحة العمل، ورأى أنهم نهضوا بأعباء العمل بحولهم وقوتهم البسيطة، أنزل عليهم حوله وقوته العظيمة، وأضاف الى حولهم حوله والى قوتهم قوته.

﴿والّذين جـٰهَدوا فينا لنهدينّهم سُبلنا وأنَّ اللّه لَمَع المحسنينَ﴾.

﴿إن تنصروا اللّه ينصركم ويثبّت أقدامكم﴾. (محمد: ٧)

فالطلب هو مزيج من حركة الانسان وسعيه وجهده، ومن دعائه وتضرعه الى الله ليقف معه ويعينه ويسدده ويذلل له العقبات وييسر له الصعاب.

وإننا لنقرأ هذه الآيات المباركة من سورة المزمل التي نزلت في أوائل الوحي على قلب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، فنرى أن الله تعالى يعلم رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم «الطلب»، في الليل والنهار، وينظم له الطلب في منهاج منظم ودقيق بين الليل والنهار... سعي وحركة وسبح طويل في ساحة العمل والمواجهة والدعوة في النهار، ودعاء وتضرع وصلاة ومناجاة ما بين يدي الله تعالى في الليل:

﴿يـٰأيّها المُزمّل * قم الّيل إلاّ قليلاً * نصفـه أوِ انقُص منه قليلاً * أو زِد عليه ورتّل

القرءَان ترتيلاً*إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً*إنَّ ناشئة الّيل هي أشدُّ وطئاً وأقوَم قيلاً*إنَّ لك في النَّهـٰر سَبحاً طويلاً*واذكُرِ اسمَ ربّك وتبتّل إليه تبتيلاً﴾ . (المزمل : ١-٨)

كل هذا الإعداد النفسي والحركي الواسع لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لأن الله تعالى سوف يلقي عليه «قولاً ثقيلاً»، وشطر من هذا الاعداد والطلب في الليل «قم الليل إلا قليلاً» . وما أدراك ما قيام الليل، إن قيام الليل بين يدي الله يؤدي دوراً هاماً في نشوء وتكوين الداعية وبناء شخصيته وتوطئته وإعداده للنهوض بأعباء القول الثقيل وفي تقويم قيله ومنطقه : «إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلاً»، والشطر الآخر من هذا الطلب في النهار وفي ساحة العمل والمواجهة والمعاناة : «إن لك في النهار سبحاً طويلاً» ...

والتعبير بالسبح تعبير دقيق وجميل، فإن السابح يغالب الجاذبية ليبقى على الماء ولئلا يغرق في الماء ويغالب التيار، لئلا يجرفه التيار معه، واذا أغفل عن مهمته وتوقف عن الحركة لحظة واحدة، غرق في الماء وجره التيار معه ... كذلك العمل في ساحة المواجهة والدعوة، يتطلب حركة دائمة وحذراً دائماً من دون إنقطاع .

وذلك أن يجمع «السعي» و«الدعاء» تحت عنوان «الصبر والصلاة» في أكثر من آية . والسعي هو الصبر ذلك أن السعي هو التعامل مع الواقع والتعامل مع الواقع يتطلب الصبر، وفي مقابل الصبر الهزيمة من الواقع وهو الإعراض عن الحركة والسعي والدعاء هو الصلاة .

إذن الصبر والصلاة هما العنصران المقومان للطلب، وكل طلب ينبغي أن يتقوم بالصبر والصلاة .

يقول تعالى : **﴿آستعينوا بالصَّبر والصَّلوٰة إنَّ الله مع الصَّـٰبرين﴾** . (البقرة : ١٥٢)

ويقول تعالى : **﴿وآستعينوا بالصَّبر والصَّلوٰة﴾** . (البقرة : ١٤٥)

ويقول تعالى في سورة هود وهو يعلّم رسوله كيف يواجه واقع عتاة قريش ومردة العرب في بدء الرسالة : **﴿وأقم الصَّلوٰة طرفَي النَّهـٰر وزلفاً من الَّيل إنَّ الحسنـٰت يُذهبن السّيِّئات ذٰلك ذكرىٰ للذّاكرين*وآصبر فإنَّ الله لا يضيع أجر**

المحسنين﴾. (هود: ١١٤-١١٥)

والقرآن كتاب «الطلب» يدعو المؤمنين الى الحركة والعمل والنزول في ساحة المواجهة والدعوة والمعاناة، ويدعو المؤمنين الى الصبر والمصابرة:

﴿يـٰأيُّها الّذين ءَامنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتَّقوا اللّه لعلّكم تفلحون﴾. (آل عمران: ٢٠٠)

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنَّة ولمَّا يعلمِ اللّه الّذين جـٰهَدوا منكم ويعلم الصّـٰبرين﴾. (آل عمران: ١٤٢)

﴿لا يستوي القـٰعِدون من المؤمنين غير أولي الضَّرر والمجـٰهدون في سبيل اللّه بأموالهم وأنفسهم فضّل اللّه المجـٰهدين بأموالهم وأنفسهم على القـٰعدين درجةً وكلاًّ وَعَدَ اللّهُ الحسنىٰ وفضّل اللّه المجـٰهدين على القـٰعدين أجراً عظيماً﴾. (النساء: ٩٤)

﴿إنَّ الّذين ءَامنوا وهاجروا وجـٰهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللّه والّذين ءَاوَوا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض. . . ﴾. (الأنفال: ٧٢)

وهذا هو أحد شطري الطلب، والشطر الآخر للطلب هو الدعاء واللجوء الى الله تعالى.

والقرآن يوجه الانسان الى الله للدعاء والتضرع:

﴿قل ما يعبؤا بكم ربّي لولا دعاؤكم﴾. (الفرقان: ٧٧)

﴿وقال ربّكم ادعوني أستجب لكم﴾. (المؤمن: ٦٠)

﴿وإذا سألك عبادي عني فإنّي قريب أجيب دعوة الدّاع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون﴾. (البقرة: ١٨٦)

ويعلمنا القرآن كيف كان المؤمنون الأوائل يدعون الله تعالى ويلجأون اليه في ساحة المواجهة والمعاناة، فينقل لنا طرقاً من أدعيتهم:

﴿ربَّنا أفرغ علينا صبراً وثبِّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكـٰفرين﴾. (البقرة: ٢٥٠)

ويعلمنا القرآن كيف ندعو الله تعالى وماذا نطلب منه في ساحة المواجهة والعمل، ومن أروع هذه الأدعية، الآيات الأواخر من سورة البقرة:

﴿ربَّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربَّنا ولا تَحمِل علينا إصراً كما حَمَلته على الَّذين من قبلنا ربَّنا ولا تُحَمِّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا أنت مولٰنا فانصرنا على القوم الكٰفرين﴾. (البقرة: ٢٨٦)

فالقرآن كتاب «طلب» بشطريه: الحركة في ساحة العمل والمواجهة، واللجوء والتضرع والدعاء بين يدي الله تعالى ...

والطلب أحد مفتاحي شرح الصدر، فاذا تحرك العاملون في سبيل الله، ونزلوا ساحة المواجهة والعمل وجاهدوا وهاجروا، وأقبلوا على الله تعالى يطلبون منه النصر، والتأييد والتوفيق والتيسير، وتذليل العقبات ...

فإن أول ما يرزقهم الله تعالى من رزق هو أن يشرح صدورهم لما يواجهونه من هموم ومتاعب وعقبات صعبة وتحديات كبيرة، فيهون عليهم ذلك كله ...

إن المتفرجين علي الساحة من هامش الساحة ليتصورون بعض ما يلاقيه العاملون في الساحة من جهد ومعاناة وابتلاء، فتضيق بذلك صدورهم، وتنقبض نفوسهم، فاذا نزلوا الى الساحة وتحملوا هموم العمل في سبيل الله وواجهوا متاعبه وآلامه، اتسعت صدورهم لما كان تضيق به من قبل، وشرح الله تعالى صدورهم له.

إن الناس يقولون بأن الساحة تأخذ وتعطي، تأخذ من الناس إهتمامهم وجهدهم، وتعطيهم سعة الصدر والتحمل والقدرة على المقاومة ... ونحن نقول إن الساحة لا تعطي شيئاً، وإنما الله تعالى هو الذي يمنح العاملين في الساحة سعة الصدر، ولكن مفتاح هذا الرزق الإلهي هو النزول الى الساحة، وطلب المواجهة والمعاناة، والدعاء والتضرع الى الله تعالى، ومفتاح كل ذلك القرآن.

٢ - المعرفة

والمفتاح الآخر لسعة الصدر، معرفة الله تعالى، ومعرفة سنن الله تعالى، وإن من الرزق ما يفتح الله أبوابه على عباده بالمعرفة ... وشرح الصدر من ذلك كمن

يوجد تحت قدميه كنز ولا يعرف بموضعه ، فإن مفتاح هذا الكنز معرفته ... كذلك شرح الصدر شأن من شأن الله تعالى ، ومفتاحه معرفة الله وصفاته الحسنى وسننه وفعله ، ولابد من تشريح هذه العلاقة بين المعرفة وشرح الصدر...

وقبل أن نتحدث عن علاقة المعرفة بشرح الصدر، أحب أن أذكر إن شرح الصدر وضيق الصدر مراحل ومراتب . فما يكون مصداقاً لضيق الصدر في رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وفي موسى وهارون عليهما السّلام يكون بالنسبة الينا من شرح الصدر، وما يكون مصداقاً لشرح الصدر بالنسبة الى أولياء الله تعالى العاملين قد يكون مصداقاً لشرح الصدر لسائر العاملين والدعاة .

فاذا استدرجتنا ضرورة الحديث في هذا الموضوع الدقيق الى نسبة ضيق الصدر الى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم والى سائر أنبياء الله عليهم السّلام إنسجاماً مع ما يذكره القرآن من هذا الأمر... فإننا لا نريد أن ننسب إليهم عليهم السّلام ما نجده في أنفسنا من ضيق وحرج في الصدور واستغفر الله تعالى اذا استدرجنا الكلام الى ما يوحي بهذا المعنى أو ما يشبهه .

ونعود مرة أُخرى الى ما كنا بصدده من حديث عن علاقة المعرفة بشرح الصدر فنقول :

١ - إن من مفاتيح شرح الصدر معرفة سنة الله تعالى في الابتلاء . فاذا عرف الدعاة الى الله إن الابتلاء سنة شاملة للناس جميعاً ، وهي للمؤمنين تمحيص وتطهير وتزكية ، وللكافرين محق وهلاك ...

وإن الله تعالى جعل الابتلاء في الانسان طريقاً الى الكمال وطريق الانسان الى الجنة ، وإن المؤمنين لا يشقون طريقهم الى الجنة إلا من خلال الابتلاء ، زال عن صدورهم ما يجدون من ضيق وحرج في مواجهة الابتلاء والمحنة ، يقول تعالى :

﴿إن يمسَسكم قَرحٌ فقد مسَّ القومَ قَرحٌ مثلُه وتلك الأيّـٰم نداولها بين النّاس وليعلم اللّه الّذين ءَامنوا ويتَّخذ منكم شهداء واللّه لا يحبُّ الظّـٰلمين*وليُمَحِّصَ اللّه الّذين ءَامنوا ويمحق الكـٰفرين*أم حسبتم أن تدخلوا الجنَّة ولمّا يعلم اللّه الّذين

جـٰهدوا منكم ويعلم الصّـٰبرينَ﴾ . (آل عمران : ١٤٠-١٤٢)

٢- وإنما تضيق صدور العاملين بما يجدون أمامهم من عقبات وصعوبات في الطريـق، لأنهم لا يحسون جيداً، وكمـا ينبغي، بمعية الله تعـالى لهم في كـدحهم وجهادهم، فاذا أحسوا بأن الله تعالى معهم في هذا الكدح وهذا الجهاد، وأن يد الله معهم، لا تفارقهم في هذا الطريق الصعب، زال عنهم ما يجدونه من ضيق وحرج في صدورهم.

ولذلك نرى أن موسى وأخاه عليهما السّلام عندما أفصحا عن خـوفهما من أن يفرط عليهما فـرعون ويطغى، وهـو في ملكـه وسلطانه، وضـاق صدرهما بـالذهـاب الى فرعون ودعوته الى الله، و: «قالا ربنـا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى»... علم الله سر هذا الضيق فـي صدرهما، فأراد ربك أن يذهب عنهما مـا يجدانه من خوف وضيق في الصدر، فــ: «قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى»... فذكـر الله تعالى لهما أنه معهما يسمع ويـرى... ولقد كان هذا الإحساس بمعية الله تعالـى لهما كافياً ليذهب عنهما ما كانا يجدانه من ضيق وخوف.

٣- ومن مفاتيح شرح الصدر للعامليـن أن يعلموا إن فترة الابتلاء والمحنة مهما قست ضراوتها قصيرة، وإن سنة الله تعالى في عباده الصالحين أن يجعل لكل إبتلاء ومحنة إنفراجاً، ولكـل عسر يسراً، وإن هذه المحن والابتلاءات مهمـا طالت وقست فلابد أن يعقبها اليسر والإنفراج ...

ولقد أكد الله تعالى لرسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم في بداية الوحي وفي شدة المحنة وضراوتها هذه الحقيقة بصورة مؤكدة ومتكررة :

﴿فإنَّ مع العسر يسراً*إنَّ مع العسر يسراً﴾ . (الإنشراح : ٥-٦)

ويقول تعالى في لهجة قوية قاطعة :

﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ . (الطلاق : ٧)

٤- ومن مفاتيح شرح الصدر أن يعرف الدعاة إن هذا الصراع مهما طال وقسى، فلابد أن ينتهي بانتصار حزب الله وهزيمة حزب الشيطان...

﴿ألا إنَّ حزب اللّه هم المفلحون﴾ . (المجادلة : ٢٢)
﴿ألا إنَّ حزب الشَّيطٰن هم الخٰسرون﴾ . (المجادلة : ١٩)
﴿ومن يتولّ اللّه ورسوله والّذين ءامنوا فإنَّ حزب اللّه هم الغٰلبون﴾ . (المائدة : ٥٦)

وإن الله تعالى قد كتب الغلبة في هذا المعترك ، له ولرسوله وللدعاة اليه :

﴿كتب اللّه لأغلبنّ أنا ورسلي إنَّ الله لقويّ عزيز﴾ . (المجادلة : ٢١)

ومهما قست ظروف المواجهة وطالت المحنة ، واشتدت ضراوة المعركة فلابد أن يظهر هذا الدين على الدين كله :

﴿هو الّذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحقِّ ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره المشركون﴾ . (الممتحنة : ٨)

وإن طبيعة الحق هو الظهور وطبيعة الباطل هو الهلاك.والخسران :

﴿إنَّ البٰطل كان زهوقاً﴾ . (الإسراء : ٨١)

وإن الله تعالى يقذف على الباطل بالحق فيزهقه :

﴿بل نقذف بالحقِّ على البٰطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ . (الأنبياء : ١٨)

ولقد أوحى الله تعالى الى عبده وكليمه موسى عليه السّلام بين يدي المسؤولية الكبيرة التي ألقاها على عاتقه بدعوة فرعون الى الله ومواجهته ... بهذا الوعد الإلهي القاطع ، وبهذه الإرادة الإلهية الحاسمة :

﴿ونريد أن نمنّ على الّذين استضعفوا في الأرض ونجعلَهم أئمّةً ونجعلَهم الوارثينَ*ونمكّنَ لهم في الأرض ونُرِيَ فرعونَ وهٰمٰنَ وجنودَهما منهم ما كانوا يحذرونَ﴾ . (القصص : ٥-٦)

وإن الدعاة الى الله تعالى إذا عرفوا جيداً هذا الوعد الإلهي وهذه الإرادة الإلهية هان عليهم ما يواجهونه من محنة وابتلاء ، واتسعت صدورهم لما يواجهونه من ألوان العذاب والابتلاء .

٥- ومن مفاتيح سعة الصدر في المعركة المحتدمة بين حزب الله وحزب

الشيطان، ومـا يجده حـزب الله من قـوة وشوكـة حزب الشيطان، ومـن قلة عـددهم وضعف إمكـاناتهم أن يعلمـوا أن النصر من اللـه تعالى، وأن اللـه تعالى هـو الذي يعطـي النصر ويحققـه، وليـس النصـر للبطش والبطـر والـريـاء، وليست القـوة ولا السلطان هو الذي يصنع النصر، وإنما الله تعالى هو وحده يصنع النصر...

فاذا عرف حزب الله أن النصر بيد الله تعالى وليس لأي عامل آخر دور في صنع النصر، قويت عزيمتهم، وقوى أملهم، وشرح الله تعالى صدورهم، لما يصيبهم من وعثاء المعركة ما دام أمر النصر بيد الله تعالى، مولاهم...

والقرآن يقرر هذه الحقيقة بصورة مؤكدة ومتكررة ورائعة:

﴿واللّـه يـؤيِّـد بنصـره مـن يشـاء إنَّ فـي ذلـك لعبـرة لأولـي الأبصـٰر﴾. (آل عمران: ١٣)

﴿وما النَّصر إلاّ من عند اللّه العزيز الحكيم﴾. (آل عمران: ١٢٦)

﴿وما النَّصر إلاّ من عند اللّه إنَّ اللّه عزيز حكيم﴾. (الأنفال: ١٠)

﴿إن ينصركـم اللّه فـلا غالـب لكم وإن يخـذلكم فمـن ذا الّذي ينصـركم مـن بعده﴾. (آل عمران: ١٦٠)

٦- ومن مفـاتيح شرح الصـدر أن يؤمـن الدعاة الـى الله تعالـى إيمانـاً يقينياً، تطمئن اليـه قلوبهـم، إنما يعـد الله تعالـى عباده مـن نصر وتـأييد ومعيـة حقيقية لا يخلفها الله تعـالى... وإننا لنؤمـن بأن الله تعالـى لا يخلف وعده، هو إنـه الصادق الوفي، ومن أصدق من الله قيلاً.

ولكن تـرسيخ هذا الإيمـان في النفس وتثبيته وتكـريسه من شـأنه أن يزيـل من نفوس الدعاة الى الله كل ضيق وحـرج وخوف، وأن يمنحهم سعة الصدر في ظروف المحنة والابتلاء، ويكرر القرآن ويؤكد هذه الحقيقة الإيمانية في مواضع كثيرة:

﴿فلا تحسبنّ اللّه مخلفَ وعدِه رسلَه إنَّ اللّه عزيزٌ ذوانتقام﴾. (إبراهيم: ٤٧)

﴿ثمَّ صَدَقنـٰهم الوعد فأنجينـٰهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين﴾. (الأنبياء: ٩)

﴿ولن يخلف اللّه وعده﴾. (الحج: ٤٧)

﴿فرددنٰه إلىٰ أمّه كَي تقرَّ عينُها ولا تحزن ولتعلم أنَّ وعد اللّه حقّ﴾ . (القصص : ١٣)
﴿فاصبر إنَّ وعد اللّه حقّ ولايستخفنّك الّذين لايوقنون﴾ . (الروم : ٦٠)

٧- ومن مفاتيح شرح الصدر أن يعلم المؤمنون الدعاة ان الأمر كله في هذا الكون بيد الله تعالى لا يشاركه فيه أحد، ولا سلطان لغير الله في هذا الكون كله... وإن الأمر كله له أولاً وأخيراً وظاهراً وباطناً، وهو الحاكم المنفرد بالحكم والسلطان في هذا الكون... وإننا لنؤمن بهذه الحقيقة إيماناً قطعياً، ولكننا عندما نصغي الى القرآن يقرر هذه الحقيقة الكونية الهائلة في الوقت الذي يبرز الطاغوت وجنده وحزبه لمغالبة سلطان الله وللاعتداء على حاكمية الله تمتلىء نفوسنا ثقة وطمأنينة، ويزول ما في نفوسنا من ضيق وخوف وقلق وإرتباك ونحس ببرد الطمأنينة يلامس صدورنا والقلوب التي في الصدور، وتنشرح لها صدورنا بإذن الله. فما بالنا نقلق ونرتبك في وسط هذا الخضم المتلاطم والأمر كله بيد الله مولانا، وله الحكم وله الأمر أولاً وأخيراً...

إذن فلنستمع الى كتاب الله يقرر هذه الحقيقة :

﴿وإلى اللّه تُرجَع الأمور﴾ . (البقرة : ٢١٠)، (آل عمران : ١٠٩)، (الأنفال : ٤٥)، (الحج : ٧٦)، (فاطر : ٤).

﴿يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إنَّ الأمر كلَّه للّه﴾ . (آل عمران : ١٥٤)
﴿إنِ الحكمُ إلاّ للّه﴾ . (الأنعام : ٥٧)
﴿وللّه غيبُ السّمٰوٰت والأرض وإليه يُرجَع الأمرُ كلّه﴾ . (هود : ١٢٣)
﴿لا يُسئل عمّا يفعل وهم يُسئلون﴾ . (الانبياء : ١٢٣)
﴿للّه الأمر من قبل ومن بعد﴾ . (الروم : ٤)

٨- ومن مفاتيح شرح الصدر أن يعلم المؤمنون العاملون أن الله تعالى قوي عزيز لا يعجزه شئ، وكما كان الحكم والأمر والسلطان كله لله تعالى في هذا الكون، فإن القوة كلها لله تعالى أيضاً... لا يزاحمه شيء، ولا يعجزه شيء، ولا يغلبه شيء... وإن الدعاة الى الله ليحسون بهذه الحقيقة وبأن القوة والقدرة كلها في قبضة

مولاهم، وأن الطاغوت وحزبه مهما تطاولوا على الله تعالى ومهما أقدرهم الله في غيهم وطيشهم فلن يغلبوا الله ولن يعجزوا الله، وإن الله تعالى إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، فتطمئن نفوسهم وتنشرح صدورهم وتمتلىء نفوسهم ثقة وطمأنينة في قلب المعركة وضراوة المحنة، واستمع الى كتاب الله يقرر هذه الحقيقة:

﴿ولا يحسبنّ الّذين كفروا سبقوا أنّهم لايُعجزونَ﴾. (الأنفال: ٦٠)

﴿واعلموا أنّكم غيرُ مُعجِزى اللّه﴾. (التوبة: ٢)

﴿لا تحسبنّ الّذين كفروا معجزين في الأرض﴾. (النور: ٥٧)

﴿أم حسب الّذين يعملون السّيّئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون﴾. (العنكبوت: ٤)

﴿وما كان اللّه ليُعجزه من شيءٍ في السَّمٰوٰت ولا فى الأرض﴾. (فاطر: ٤٤)

٩- ومن مفاتيح شرح صدور المؤمنين أن يعرفوا أن كل ما في السموات وما في الارض من شيء فهو جند لله تعالى يأتمر بأمره، وينفذ حكم الله، فلا تخيف المؤمنين الدعاة عندئذ كثرة عدد أعداء الله ورسوله، وضخامة قوة المستكبرين، ولا يضعفهم قلة عددهم، ويشعرون براحة وثقة وطمأنينة في صدورهم، فقد وعدهم الله تعالى بالنصر، ولن يخلف الله تعالى وعده، ولن يعجزه شيء عن تنفيذ وعده... وكل ما في السموات والارض جند له منقاد لأمره. فاذا أمر الله الرياح أن تعصف بهم لما أبقت منهم أحدا، واذا أمر الله البحار والمياه أن تأخذهم لم يسلم منهم أحد، واذا أمر الله الارض أن تهتز من تحت أقدامهم لما بقيت منهم باقية، كما فعل الله تعالى بأمم من الظالمين من قبل، ولله تعالى جنود لا نراها ينزلها حينما يشاء لنصرة ودعم القلة المؤمنة، كما فعل ببدر، فلم تنفع المشركين كثرتهم:

﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾. (التوبة: ٢٧)

﴿وأيّده بجنود لم تروها﴾. (التوبة: ٤١)

﴿إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها﴾. (الأحزاب: ٩)

﴿ولله جنود السّموات والأرض﴾. (الفتح: ٤-٧)

﴿وما يعلم جنود ربّك إلاّ هو﴾. (المدثر: ٣١)

١٠- ومن مفاتيح شرح الصدر أن نعلم أن الله تعالى يدخر جزاء العاملين للآخرة، والدنيا وما فيها ليست لهم جزاء، وإنما جزاؤهم الحقيقي في الجنة، عند الله.

وما نقدمه لله تعالى في هذه الدنيا من الأموال والأنفس فإن ثمنه الجنة:

﴿إنّ اللّه اشترىٰ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنّة يقـٰتلون في سبيل اللّه فيَقتُلون ويُقتَلون وعداً عليه حقّاً في التَّورىٰة والإنجيل والقرءَان ومن أوفىٰ بعهده من اللّه فاستبشروا ببيعكم الّذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾. (التوبة: ١١١)

وما النصر الذي يعدنا الله تعالى به في هذه الدنيا ويحققه لنا إلا فرحة ومتاعاً من فضل الله، وليس مما يعبؤ به الله تعالى، وإنما الجزاء الحقيقي للمؤمنين عن سعيهم والذي يرتضيه الله تعالى لهم هو الفوز العظيم في الجنة بلقاء الله ورضوان الله، استمعوا اليه تعالى:

﴿يـٰأيّها الّذين ءَامنوا هل أدلّكم على تجـٰرةٍ تُنجيكم من عذاب أليم*تؤمنون باللّه ورسوله وتجـٰهدون في سبيل اللّه بأموالكم وأنفسكم ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون*يغفرْ لكم ذنوبكم ويدخلْكم جنّـٰت تجري من تحتها الأنهـٰر ومسـٰكن طيّبةً في جنّـٰت عدن ذٰلك الفوز العظيم*وأخرىٰ تحبّونها نصرٌ من اللّه وفتح قريب وبشّر المؤمنين﴾. (الصف: ١٠-١٢)

وما في هذا الدنيا من متاع فهو فان ينفد، وما عند الله تعالى باق لا ينفذ:

﴿ما عندكم يَنفدُ وما عند اللّه باق﴾. (النحل: ٩٦)

وما متاع الحياة الدنيا الا متاع الغرور، ينفد سريعاً وينتهي أمده، وأما الآخرة فهي الحياة الحقيقية الباقية للانسان:

﴿وما هذه الحيوٰة الدُّنيا إلاّ لهو ولعب وإنّ الدّار الآخرة لهي الحَيَوان لو كانوا يعلمون﴾. (العنكبوت: ٦٤)

إن العاملين في سبيل الله والدعاة الى الله يقرؤون هذه الحقائق في كتاب

الله ... فتطمئن نفوسهم الى أن ما يفوتهم من هذه الحياة الدنيا -في سبيل الله- فأمره هين يسير، وأن الله تعالى سوف يعوضهم عما فاتهم من هذه الدنيا بالفوز العظيم في الجنة ... فتطمئن نفوسهم وتنشرح صدورهم، ويستقلون ما يقدمونه لله تعالى في دنياهم مما أعطاهم الله تعالى بفضله لقاء ما يعطيهم الله تعالى من فضله في الآخرة.

القرآن بشرى للمؤمنين

هذه بعض مفاتيح «شرح الصدر» في كتاب الله ... والقرآن مفتاح ذلك كله، والدليل اليه ... والذين يأنسون بكتاب الله ويتفاعلون معه، ويأخذون منه تطمئن نفوسهم الى ذلك كله، ويجدون في القرآن بشرى لهم من الله في وسط المحنة والمعاناة والآلام والعذاب الذي يكتنف الدعوة الى الله في الدنيا.

﴿إنَّ هـٰذا القرءَان يهدي للَّتي هي أقوَم ويبشِّر المؤمنين الَّذين يعملون الصّـٰلحـٰت . . .﴾. (الإسراء: ٩)

﴿ونزَّلنا عليك الكتـٰب تبياناً لكلِّ شيءٍ وهدًى ورحمةً وبشرىٰ للمسلمين﴾. (النحل: ٨٩)

﴿فإنَّما يسَّرنـٰه بلسانك لتبشِّر به المتَّقين وتنذر به قوماً لُدّاً﴾. (مريم: ٩٨)

﴿تلك ءَايـٰت القرءَان وكتـٰبٍ مبين *هدًى وبشرىٰ للمؤمنين﴾. (النحل: ١)

إذن كتاب الله بشرى للمؤمنين يطمئنهم بوعد الله ويذهب عن نفوسهم آلام المحنة وضراوة المواجهة والصراع مع الطاغوت، ويعدهم ويعينهم، ووعد الله حق، والله تعالى لا يخلف وعده، بالفوز العظيم في الجنة، وأخرى تحبونها في الدنيا، نصر من الله وفتح قريب.

في القرآن تثبيت لقلوب المؤمنين

وبالقرآن يثبت الله قلوب الذين آمنوا، وتثبيت القلوب والأفئدة هو بمعنى «شرح

الصدر» ... وفي مقدمة هذه القلوب التي ثبتها الله تعالى بالقرآن قلب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ... فقد أنزل الله تعالى القرآن على قلب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم مرتين . أنزله على قلبه صلّى الله عليه وآله وسلّم مرة واحدة ليثقفه بثقافة القرآن وبصائره، ثم أنزله مجزئاً وتدريجياً على قلبه خلال ثلاث وعشرين سنة، قبل الهجرة وبعدها، وفي محنة الدعوة في مكة، وفي مواجهة قريش ومردة العرب والمنافقين واليهود بعد الهجرة، ليكون هذا القرآن بنزوله التدريجي تثبيتاً لفؤاد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وشرحاً لصدره ...

﴿وقال الَّذين كفروا لولا أنزل عليه القرءَان جملةً واحدةً كذٰلك لنثبِّت به فؤادك ورتَّلنٰه ترتيلاً*ولايأتونك بمَثَل إلاّ جئنٰك بالحقِّ وأحسن تفسيراً﴾ . (الفرقان : ٣٢-٣٣)

﴿وإنَّه لتنزيل ربِّ العٰلَمين*نزل به الرّوحُ الأمين*علىٰ قلبك لتكون من المنذرين﴾ . (الشعراء : ١٩٢-١٩٣)

ولا نحتاج الى تبيان وقع هذه الكلمة ومعناها :

«نزل به الروح الأمين على قلبك» .

ويقص الله تعالى القصص على نبيه صلّى الله عليه وآله وسلّم من أنباء الرسل في القرآن ليثبت به قلب رسوله في وسط المحنة والمعاناة :

﴿وكلاًّ نقصُّ عليك من أنباء الرُّسل ما نثبِّت به فؤادك وجاءك في هٰذه الحقُّ وموعظة وذكرىٰ للمؤمنين﴾ . (هود : ١٢٠)

وكذلك القرآن يثبت قلوب الذين آمنوا ويطمئنهم :

﴿قل نزّله روحُ القُدُس من ربّك بالحقِّ ليثبّت الَّذين ءَامنوا﴾ . (النحل : ١٠٢)

وإنما نزل الله القرآن تنزيلاً، يقرأه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على المسلمين لهذا الغرض بالذات :

﴿وقرءَاناً فرقنٰهُ لتقرأهُ على النّاس علىٰ مُكثٍ ونزّلنٰهُ تنزيلاً﴾ . (الإسراء : ١٠٧)

مردودات شرح الصدر

وإذا شرح الله صدراً لهموم العمل وابتلاءاته وظروف الدعوة القاسية، فإن مردود هذه الصدور هو:

١- التوكل والتفويض في علاقة العاملين في حقل الدعوة بالله تعالى.

٢- الصبر والاستقامة في علاقتهم بساحة العمل.

٣- السكينة في علاقتهم بأنفسهم.

وهذه من أهم ثمرات شرح الصدر في علاقة العاملين بالله تعالى وبساحة عملهم وبأنفسهم.

ولنوضح هذه النقاط الثلاثة توضيحاً موجزاً بقدر ما يرتبط بهذا الحديث.

إن «التوكل» في العلاقة بالله هو أن يوكل العبد أمره الى الله تعالى، ويجعل الله تعالى وكيلاً عنه في التصرف بأموره، في حركته ودعوته الى الله تعالى.

إن من خصائص الذهنية الإيمانية في نفوس الدعاة أن لا يغتر المؤمن بنفسه وكفاءاته الذهنية والعملية، ولا يعتد بنفسه، بعكس التربية الغربية في الاعتداد بالنفس والاعتماد على النفس. إنه في الوقت الذي يفكر ويخطط ويعمل يوكل أمره كله لله تعالى، ويجعل الله على أموره وكيلاً، ويضع ثقته في الله تعالى... كما أن أحدنا يضع رأس ماله وصلاحياته وسلطاته كلها تحت تصرف شخص آخر، ويتخذه وكيلاً عنه في إستخدام أمواله وصلاحياته وسلطاته... كذلك المؤمنون يضعون أنفسهم وما آتاهم الله من رأس مال في التفكير والتخطيط والجهد والعمل تحت تصرف الله تعالى، ويوكلونه في التصرف بما آتاهم من جهد وقوة، في هذا السبيل، وليس هذا هو من «التواكل» و«التخلي» عن التفكير والعمل، وإنما يوكل الانسان أمر تفكيره وقدراته الى الله تعالى ليوجهها بالطريقة التي يرتضيها... فهو يفكر ويعمل، ولكن بتسديد من الله تعالى وحوله.

وأعمق من حالة «التوكيل» حالة «التفويض»، وهي أن يسلم الانسان أمره كله لله تعالى، ويفوضه تعالى في أمره كله، يصنع به ما يشاء، ويسلم نفسه لله -تسليماً

كاملاً- وهو يعلم أن الله تعالى بصير بعباده، فيما يصنع بهم:

﴿وأفوِّضُ أمري إلى اللّه إنَّ اللّه بصير بالعباد﴾.

وأعمق من حالة «التفويض» الرضا بأمر الله وهي درجات العلاقة بين العبد ومولاه.

والتوكيل والتفويض والرضا أمارة الثقة بالله تعالى وسلطانه وحكمته وبصره بعبده ورحمته به... فاذا وضع الانسان ثقته كلها في الله... فلا يتردد في أن يوكله سبحانه في أموره ويفوض اليه تعالى أموره كلها، ثم يعمل ويتحرك ويخطط ويفكر من منطلق الاعتماد على الله والتوكل عليه، وتفويض الأمر اليه، وبهذه الثقة العالية، وليس من منطلق الاعتماد على النفس والإعتداد بها.

وتبادل التوكيل بين الله تعالى وعبده من أروع مفاهيم القرآن الكريم... فإن الله تعالى قد أودع عند عبده ما يملك من فكر وجهد وجارحة وجانحه، وخوله التصرف فيه بالوكالة عنه، وجعله خليفة له سبحانه على ما أودع عنده وما خوله التصرف فيه مما حوله... فيعود العبد مرة أُخرى بما ملكه الله، والعبد وما في يده لمولاه، فيطلب من ربه أن يكون وكيلاً عنه في التصرف بما أودع له، وتصريفه وتحريكه بالشكل الذي يرتضيه. يملك الله عبده ما يؤتيه من رزق ويخوله التصرف فيه بالنيابة عنه، فيعيد العبد الى مولاه أمر ما خوله فيه، ويضع ثقته في مولاه، ويطلب منه أن يكون وكيلاً عنه قيماً في تصريف وتحريك واستخدام ما خوله فيه. هذا فيما يتعلق بعلاقة العبد بالله تعالى.

أما فيما يتعلق بعلاقة الانسان المؤمن بساحة عمله وساحة الدعوة والجهاد، فإن مردود شرح الصدر هو «الصبر» و«الإستقامة»، وهما بمعنى الثبات أمام تحديات الساحة، ومواجهة مشاكل الدعوة ومتاعبها من دون تراجع، والاستمرار في مواصلة العمل بنفس ثابتة مطمئنة:

﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك﴾. (هود: ١١٣)

﴿إنَّ الَّذين قالوا ربُّنا اللّه ثمَّ استقامـوا تتنزَّل عليهم الملٰئكة ألاّتخافوا ولاتحزنوا

وأبشروا بالجنَّة الّتي كنتم توعدون﴾ . (فصلت : ٣٠)

﴿فاصبر علىٰ ما يقولون﴾ . (طه : ١٣٠)

﴿فاصبر إنَّ وعدَ الله حقّ﴾ . (الروم : ٦٠)

﴿واصبر علىٰ ما أصابك إنَّ ذٰلك من عزم الأمور﴾ . (لقمان : ١٧)

وكل هذه التعليمات بالصبر والاستقامة تخص ساحة المواجهة والدعوة والعمل ... ومن دون هذا الصبر والاستقامة والتماسك الداخلي في مواجهة تحديات الجاهلية ومشاكسة حزب الشيطان، فإن الدعاة الى الله لا يستطيعون الصمود والمقاومة، ويتساقطون أثناء الطريق، وينهار بُنيانَهم الداخلي من الأساس ... كما حدث ذلك لكثير من العاملين في سبيل الله، تساقطوا وانهاروا لأنهم لم يحسنوا الصبر والاستقامة في مواجهة التحديات ومتاعب العمل ...

أما فيما يتعلق بعلاقة الدعاة بأنفسهم، فإن مردود شرح الصدر هو «السكينة» في مقابل الارتباك والقلق .

فإن الدعاة الى الله إذ يسلحون أنفسهم بمعرفة الله تعالى وسننه، ويضعون ثقتهم في الله، فإن حالة من السكون والاستقرار والطمأنينة ستستقر في أنفسهم، فلا ينتابهم القلق والارتباك، ولا تهزهم الأحداث، ولا تصيبهم الهزيمة داخل نفوسهم، ولا يشعرون بضعف وشقة .

إنها هي حالة السكينة التي أنزلها الله تعالى على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ومن معه من المؤمنين في وسط تحديات الجاهلية ومتاعبها .

﴿ثمَّ أنزل اللّه سكينته علىٰ رسوله وعلى المؤمنين﴾ . (التوبة : ٢٦)

﴿فأنزل اللّه سكينته علىٰ رسوله وعلى المؤمنين﴾ . (الفتح : ٢٦)

﴿فأنزل اللّه سكينته عليه وأيّده بجنود لم تروها﴾ . (التوبة : ٤٠)

والنازل من لدن الله تعالى هو «شرح الصدر» فاذا شرح الله تعالى صدر عباده، لتستوعب هموم العمل والدعوة، فإن سكينة النفس هي الأثر الطبيعي والحصيلة الناتجة منه .

ويصف أمير المؤمنين عليه السّلام المؤمن في مواجهة عـواصف التحديات فيقول عنه :

«في الزلازل وقور» .

وهـذا الوقـار في وسـط زلازل وزوابع التحـديـات والمتاعـب هو مـا نعنيه مـن «السكينة» في نفوس العاملين ، وهو مردود شرح الصدر في نفوس أولئك الذين أنعم الله عليهم وشرح صدورهم لهموم العمل ومتاعبه .

وكما أن «شرح الصـدر» يمكن المؤمنين مـن مواجهة وإستيعاب همـوم العمل وظروف المحنـة ومتاعب الطـريق ، كذلـك يمكن المـؤمنين من إستيعـاب وتحمل الابتلاءات والمصائب التي ينزلها الله تعالى على عباده لتقويم شخصيتهم وتكريس إيمانهم ومقاومتهم وصبرهم ... فليس كـل الابتلاءات التي تصيب المؤمنين من قبيل إبتلاءات وهموم العمل ، وإنما يصيبهم ما يصيب الناس عامة ، ممّا ينزل على عباده في هـذه الدنيـا ، من همـوم وآلام ومصائب وابتـلاءات شخصية . والنـاس أمام هـذه الطائفة من الابتلاءات ينشطرون الى شطرين ، فـأما أن يقاوموا ويصبروا فيزيدهم الله تعالى مقاومة وقوة وتحملاً ، وأما أن ينهاروا فتسحقهم عجلة الابتلاء .

إن سنة الابتـلاء في حياة الناس رافعـة خافضة ، ترفـع أناساً ، وتحط آخـرين ، وتقوّم طائفة من الناس ، وتسحق طائفة أخرى ...

والأداة التـي تمكـن الانسـان مـن تحمل هـذا النـوع مـن الابتـلاء والمصـائب وإستيعابها ، وتمكن الانسان من المقاومـة والصبر ، وتحفظ الانسان أمام ضغط هذا الابتلاء هي أيضاً «شرح الصدر» ... فمن آتاه اللـه تعالى سعة في صدره وشرح صدره وقلبه تمكن من الثبات والصبر والمقاومة ... ومن لم يرزقه الله تعالى شرحاً في صدره لا يثبت أمام ضغط الابتلاء والمصيبة .

ومفتاح شـرح الصدر هنـا ، كما تقـدم في الحـديث عـن شرح الصـدر لهموم العمـل وابتلاءاتـه هـو : «معرفـة سنـن اللـه» ، ومردود «شـرح الصـدر» هو «الصبـر» و«التسليم لأمر الله» و«الرضـا بقضاء الله» ... وذلك ينبع من عرفان اللـه تعالى ، فاذا

عرف الانسان سنن الله تعالى في إبتلائه لعباده، وأنه السبيل لكمال الانسان ونيل رضوان الله تعالى، فإنه يرضخ لحكم الله تعالى، ويسلم أمره كله لله، ويرضى بحكم الله، ولما يورد الله تعالى عليه من إبتلاءات. وكل ذلك حصيلة شرح الصدر. ومن العجب أن «الصبر» من مفاتيح «شرح الصدر»، كما أن «شرح الصدر» من أسباب «الصبر»... فإن الله تعالى قد جعل الصبر نتيجة لشرح الصدر، كما أنه تعالى جعل شرح الصدر من آثار الصبر، فكلما يصبر الانسان في محنته يرزقه الله مزيداً من شرح الصدر، وكلما يقاوم أكثر يتسع صدره للمقاومة أكثر من ذي قبل، كما أن العكس أيضاً صحيح، فاذا إنهارت مقاومة الانسان أمام ضغط الابتلاءات ضاق صدره بها.

شرح الصدر في مجال المعرفة

ولئن قطعنا لحد الآن شوطاً صعباً في مسألة «شرح الصدر»، سلكنا فيه طرقاً وعرة، وصعبة، مجهدة من ألوان الابتلاء وهموم العمل والمحن التي يدخلها العاملون في سبيل الله، فإن أمامنا الآن أن نسلك الشوط الثاني من «شرح الصدر».
وهذا الشوط بخلاف الشوط الأول يمر من خلال حدائق المعرفة ورياض العرفان بالله... وكما يحتاج تحمل هموم العمل ومتاعبه الى صدر واسع، فإن تحمل المعرفة والعرفان بالله تعالى وسننه والإستنارة بنور الله وهداه والاسلام والإيمان يحتاج الى صدر واسع يتلقى من لدن الله تعالى العلم والمعرفة والهدى والنور والاسلام، وكما يحتاج تحمل هموم العمل الى شرح الصدر كذلك يحتاج تحمل معرفة الله الى شرح الصدر.

وفي القرآن الكريم ورد في موضعين ذكر لشرح الصدر بالإسلام في قوله تعالى:

﴿أَفمن شرح اللّه صدره للإسلٰم فهو علىٰ نور من ربّه فويلٌ للقٰسية قلوبهم من ذكر اللّه أولئك في ضَلٰلٍ مبين﴾. (الزمر: ٢٢)

وقوله تعالى:

﴿فمن يُرد اللّه أن يهديَه يشرحْ صدرَه للإسلـٰم ومن يُرد أن يضلّه يجعل صدرَه ضَيّقاً حَرجاً كأنّما يصّعّدُ في جوِّ السَّماء كذٰلك يجعل اللّه الرِّجس على الّذين لايؤمنون﴾. (الأنعام: ١٢٥)

«شرح الصدر» هنا هو «شرح الصدر» في الموضع الأول، إلا أن الصدور هنا تتسع لمعرفة الله ومعرفة سنن الله ولما ينزل الله تعالى على عباده من نور وهدى للاسلام والإيمان واليقين ... وهذا نوع آخر مما ينزل على الصدور غير النوع الأول.

ولله تعالى نور من المعرفة والاسلام واليقين ينزله على صدور عباده، تتلقاه صدورهم، كل بحسب إنائه وسعته ... فمن شرح الله تعالى صدره، تلقى الكثير من النور والمعرفة، ومن ضاق صدره، فلا يتلقى من هذا النور شيئاً، وبين هؤلاء وأولئك مراتب ومراحل من الشرح والضيق ... ولتوضيح هذه الحقيقة لابد أن نشير إشارة سريعة الى مسألة الفيض وهي مما شرح الله تعالى بها صدر كاتب هذه السطور، ومنها ننتقل الى ما نحن فيه من مسألة «شرح الصدر».

نظرية الفيض

وهذه النظرية لها طرفان، طرف منها يتعلق بالله تعالى، مصدر الفيض والرحمة، والطرف الآخر يتعلق بالممكنات التي تستقبل الفيض والرحمة من لدن الله تعالى ...

الطرف الأول هو الله تعالى يفيض على عباده وخلقه وعلى كل الممكنات رحمته ... وهذا الفيض من الرحمة الإلهية يفيض من عند الله بصورة دائمة ومستمرة، وبلا إنقطاع، وبلا حدود، الا أن الطرف الثاني وهو «الممكنات» يتلقى هذا الفيض من الرحمة الإلهية بمقدار ما يتسع له إناؤه وبمقدار فقره وحاجته وطلبه ...

وللفقر والحاجة في الممكنات حالتان تستنزلان رحمة الله تعالى، الحالة الأولى حالة الاستعداد لقبول رحمة الله، وهي ما عبرنا عنه بإختلاف أواني الممكنات

لتلقي رحمة الله، والحالة الثانية هي حالة «الطلب» و«الدعاء».

فلا شك أن لكل ممكن إناء يخصه من الاستعداد والقابلية لقبول وتلقي رحمة الله تعالى، وتختلف الأشياء في سعة أوانيها وضيقها، وكل يتلقى من رحمة الله تعالى بمقدار إنائه واستعداده وقابليته لقبول هذه الرحمة...

وليس في رحمة الله شح أو بخل أو ضيق أو حد، فهي نازلة على الممكنات من دون حدود وبصورة مستمرة ومتصلة، إلا أن كل شيء يتلقى من هذه الرحمة الإلهية ما يتناسب مع إستعداده وقابليته لقبول رحمة الله وسعة إنائه...

فالانسان مثلاً، وهو من أشرف الكائنات، يختلف في سعة إنائه وقابليته لقبول رحمة الله عن الحيوان... وكلاهما فقير الى رحمة الله... والفقر والحاجة الى رحمة الله في كل منهما، يستنزل رحمة الله تعالى، الا أن إناء الانسان وقابليته واستعداده التكويني لقبول رحمة الله أوسع بكثير من إناء الحيوان وقابليته وإستعداده. ولذلك فهو يستنزل من مواهب الله تعالى ورحمته أكثر مما يستنزله سائر الحيوانات من المواهب الإلهية ومن رحمة الله.

وهذا هو المقصود بالإناء والاستعداد في الممكنات، وهو نحو من الطلب، الا أنه بلسان الحال والاستعداد، وليس بلسان المقال... والنحو الآخر من الفقر هو حالة «الطلب» و«والسؤال» من الله تعالى و«الدعاء» وهي حالة فقر وحاجة واستعداد، إلا أنها «حالة واعية» بعكس الحالة السابقة فإنها كانت حالة من الاستعداد والقابلية غير الواعية... وهذا الطلب بلسان المقال في مقابل الطلب بلسان الاستعداد والحال...

والحالة الثانية «حالة الطلب» و«الدعاء» و«السؤال» من الله تعالى أكثر إستيعاباً لرحمة الله تعالى من الحالة الأولى «الاستعداد أو غير الواعي».

وكلاهما طلب وحاجة، إلا أن هذا الطلب وهذه الحاجة عندما تكون مقرونة بالوعي، وتأخذ صفة السؤال والدعاء تستنزل رحمة الله أكثر من الحالة الأخرى.

وهذا إجمال لابد له من تفصيل، واليك هذا التفصيل:

الرحمة النازلة

إن الرحمة الإلهية تفيض على الممكنات فيضاً دائماً مستمراً من خزانة رحمة الله، وينال كل ممكن من هذه الرحمة الإلهية الفائضة على الممكنات حصة منها بقدر إستعدادها وطلبها ...

يقول تعالى :

﴿وإن من شيءٍ إلاّ عندنا خزائنه وما ننزّله إلاّ بقدَرٍ معلوم﴾ . (الحجر: ٢٤)

ويجري هذا الفيض على الممكنات من دون عوض، ولا فائدة تعود اليه سبحانه وتعالى، فهو الغني عن خلقه، وخلقه الفقراء اليه .

وهذا الفيض من رحمة الله يجري من منبع الفيض ومبدأ الرحمة، من لدن الله جل شأنه، بصورة مستمرة ودائمة، ومن دون حدود على عالم الممكنات، كما يجري شعاع الشمس من الشمس، وجل ربنا وتعالى عن التشبيه بخلقه... وكل شيء يتلقى من هذه الرحمة النازلة من عند الله تعالى بحسب استعداده ومقدار سعة إنائه .

والقرآن يعبر عن منبع الفيض ومبدأ الرحمة الإلهية بـ«الخزائن»، وعن إفاضة الرحمة على الممكنات بـ«النزول»، فيما تقدم من قوله تعالى :

﴿وإن من شيءٍ إلاّ عندنا خزائنه وما ننزِّله إلاّ بقَدَرٍ معلوم﴾ .

ونزول الرحمة هو إفاضة الرحمة الإلهية من خزائن رحمة الله على مواضع الفقر والحاجة من عالم الممكنات .

وقد ورد في نصوص الأدعية : «يا دائم الفضل على البرية» إشارة الى هذا الفيض الدائم والمستمر على الممكنات والكائنات .

وهذه الرحمة النازلة هي كلمات الله، وليس لكلمات الله من حد ولا نفاد...

﴿ولو أنَّ ما في الأرض من شجرةٍ أقلامٌ والبحر يمدُّه من بعده سبعةُ أبحرٍ ما نفدت كلمـٰتُ الله إنَّ الله عزيزٌ حكيمٌ﴾ . (لقمان : ٢٧)

﴿قل لو كان البحر مداداً لكَلمـٰت ربِّي لَنَفِدَ البحر قبل أن تَنفَدَ كلمـٰتُ ربِّي ولو جئنا بمثله مدداً﴾ . (الكهف : ١٠٩)

وكلمة اللـه هي فعلـه ، وما يفيض سبحـانه من وجـود على الممكنـات ، يقول تعالى :

﴿إنَّما قولنا لشيءٍ إذا أردنـٰه أن نقول له كن فيكون﴾ . (النحل : ٤٠)

ويقول أمير المؤمنين عليه السّلام :

«كلامه سبحانه فعل منه أنشأه» . [١]

الفقر والحاجة في عالم الإمكان

إن رحمـة الله تنـزل مـن لدن اللـه تعـالى مـن دون حـدود ولاحساب وبصـورة مستمرة ، وتتوجه هذه الرحمة الإلهية حيث يكون فقر وحاجة ...

وكل ممكن «وقـوام الإمكان الفقر والحاجة» يـأخذ من هذه الـرحمة الإلهية ... وأسـاس هذه الإفـاضـة من جـانـب الله تعـالى كـرمـه وجوده وغنـاه ، ومـن جانـب الممكنات حاجتها وفقـرها ... ولكن كل ممكن من الممكنات يتلقـى من رحمة الله تعالى بقدر سعة إنائه ، فكلما يكون إناؤه أوسع وقابليته على إستيعاب رحمة الله أكثر يكون نصيبه من رحمة الله أوسع ... شريطة أن لا ترد رحمة الله ولا تنغلق دونها .

كما أن المطر ينزل مـن السماء فتجتذبه الأراضي الرخوة والـواطئة ، وكلما يكون مستوى الأرض أوطأ تكون الارض أكثر قابلية لاجتذاب مياه الأمطار .

وكلما تكـون مساحة الارض أوسـع تزداد قابليتهـا لاجتذاب مياه الأمطـار أكثر ، فالحفرة الصغيرة من الارض لا تتسع لما تتسـع له بحيرة من الماء ... ومن الطبيعي أن كل أرض تنال من الامطار بمقدار سعتها . كما إن الارض كلما تكون رخوة أكثر تكون قابليتها في إجتذاب و إمتصاص الأمطار أكثر...

(١) نهج البلاغة الخطبة رقم : ١٨٤ .

فهذه ثلاثة عوامل :

١ - الموقع الواطىء للأرض «وهو يمثل عنصر الفقر فيما نحن بصدده» .

٢ - مساحة الارض «وهي تمثل عنصر الاستعداد والقابلية فيما نحن فيه» .

٣ - رخاوة الارض«وهي تمثل عنصر القبول وعدم رفض الرحمة الإلهية فيما نحن فيه في مقابل حالة القساوة ورد رحمة الله» .

وهذا المثال وإن لم يكن ينطبق تماماً على الموضوع الذي نحن بصدده، ولكنه يوضحه الى حد كبير... ونحن لا نتوخى منه إلا توضيح هذه العلاقة بين إفاضة الرحمة والوجود من لدن الله تعالى، وإختلاف الممكنات في درجة قبولها وتلقيها لهذه الرحمة الإلهية .

الفقر اللاواعي والفقر الواعي

ونشرح الآن علاقة إفاضة الرحمة من لدن الله تعالى على الممكنات من خلال المثال الذي ذكرنا آنفاً ...

إن الحاجة والفقر يستنزلان رحمة الله تعالى أينما تكون ... فإن إفاضة الرحمة من لدن الله عزوجل حالة مستمرة ومن خصائص كرمه وجوده وغناه عز شأنه، ولا تنقطع ... وتفيض هذه الرحمة دائماً على موطن الحاجة والفقر... وهذه سنة إلهية لا تختلف في الجماد والنبات والحيوان والانسان والملائكة .

فحيث تجد حاجة وفقراً أُطلب عندها رحمة الله تعالى .

إن سنن الله تعالى في الفيزياء والطبيعة وفيما وراء الطبيعة «الميتافزياء» واحدة... فكما أن الارض المنحدرة تجتذب الماء، والماء المنحدر يطلب الأرض الواطئة والمنحدرة، كل منهما يطلب الآخر، كذلك الرحمة الإلهية والحاجة والفقر تجتذبان رحمة الله تعالى، كما أن رحمة الله تعالى يطلب الحاجة والفقر، كل منهما يطلب الآخر، فحيث وجدت حاجة وفقراً فاطلب عندها رحمة الله تعالى ...

وقد ورد في الحديث : «إن الله في القلوب المنكسرة»، إن القلب لينكسر

فيكون قريباً من الله، وإن القلب ليستكبر، ويدخله الكبرياء والإحساس بالغنى، ويتغطرس فيبتعد عن رحمة الله ...

فهناك نحو من التجاذب بين رحمة الله والحاجة والفقر كما يكون التجاذب بين القطبين المختلفين في المغناطيس، وكما يكون التجاذب بين الأجسام ومركز الجاذبية في الارض.

والحاجة والفقر اللذان يجتذبان رحمة الله تعالى على نحوين: الفقر الواعي، والفقر اللاواعي، وكلاهما يجتذبان رحمة الله تعالى، وتنزل عليهما الرحمة، ولابد من إشارة الى هذين القسمين من الفقر والحاجة.

الفقر اللاواعي

ونقصد بالفقر اللاواعي: الحاجة والفقر اللذان لايتخذان صفة الطلب والسؤال والدعاء الى الله تعالى ...

ونقصد بالفقر الواعي: الحاجة والفقر اللذان يتخذان صفة الطلب والسؤال والدعاء ...

وكلاهما يجتذبان رحمة الله تعالى.

والله سبحانه يفيض برحمته على مواطن الحاجة والفقر حيث يكون الفقر والحاجة، سأل الله تعالى صاحبه أم لم يسأل، وعرف الله تعالى صاحبه أم لم يعرف.

وقد ورد هذا المعنى في الدعاء المعروف في شهر رجب:

«يا من يعطي من سأله، يا من يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه تحنناً منه ورأفة».

إلا أن قابلية الفقر الواعي المقرون بالطلب والسؤال والدعاء على إجتذاب رحمة الله تعالى أوسع وأكثر... وهذه أيضاً سنة لله تعالى في إفاضة الرحمة على عالم الإمكان ...

ومهما يكن من أمر، فإن الحاجة اللاواعية تستنزل رحمة الله، ويفيض الله عليها برحمته ... فالشجرة البرية في قلب الصحراء يرزقها الله رزقها من المياه والأملاح ... والحشرة في قلب الصحراء، وعلى قمم الجبال يؤتيها الله تعالى رزقها ... والسباع والحيوانات غير الأهلية يؤتيها الله تعالى رزقها من الماء والطعام والجنس والدواء والدفيء والراحة والحنان في صغرها وما الى ذلك[1] ... والسمكة في بطون البحار تنال رزقها وما تحتاج اليه من طعام ونور وهواء وأبصار وقدرة على الدفاع وكل المتطلبات والظروف الضرورية لبقائها وحياتها ... ومهما يكن توجيه وتفسير علماء الأحياء فإن المسألة من وجهة النظر الفلسفية هي أن الله تعالى يعطي كل ذي حاجة حاجته بالصورة والطريقة التي يرتضيها.

﴿ربُّنا الَّذي أعطىٰ كلَّ شيءٍ خلقه ثمَّ هَدىٰ﴾. (طه: ٥٠)

ويحتاج صغار الانسان الى مزيد من الرعاية والحنان، فيفيض الله تعالى عليهم هذه الرعاية من خلال عاطفة الأمومة والأبوة.

إن سنن الله تعالى من هذا النمط في مواطن الفقر والحاجة، هي أن الحاجة كلما تكون أكثر، وكلما يكون إناء صاحب الحاجة لإستيعاب الرحمة الإلهية أوسع، فإن حظه من إفاضة الرحمة الإلهية أوسع، شريطة أن لا يرفض رحمة الله تعالى، كالحجارة الصلبة التي ترفض أن تستقبل قطرات المطر والارض الصلبة التي تنغلق على مياه الامطار...

ومع ذلك فلا شك أن لسعة وضيق إناء كل ممكن من الممكنات علاقة بمقدار ما يفيض عليه من رحمة الله تعالى ... فالبكتريا البسيطة والكائنات ذات الخلية

(١) نتحدث عن السنن العامة في إفاضة الرحمة من لدن الله تعالى، وإلا فقد يموت الحيوان جوعاً، وقد تجف النبتة، إلا أن هذه الحالات تتبع سنناً وقوانين إلهية أُخرى في الكون لسنا بصدد شرحها هنا، وهذه المجموعة من السنن كالشبكة المتداخلة لا نستطيع أن نفهم أحداث الكون والمجتمع إلا من خلال فهم دقيق لهذه السنن يفرز بعضها عن بعض.

الـواحدة يختلـف حظهـا من رحمـة الله تعـالـى عن الانسـان والحيـوان والنباتـات المتكاملـة ... وليس مـرد ذلك الـى شح وضيق فـي رحمة اللـه تعالـى، أو إختلاف وتميز من لدن اللـه تعالى، وإنما يرجع ذلك الى إختـلاف الممكنات، نفسها، من حيث سعة وضيق إنائها وظرفها لقبول رحمة الله، يقول تعالى:

﴿إنّا كلَّ شيءٍ خلقنـهُ بقدرٍ﴾. (القمر: ٤٩)

﴿وإنْ من شيءٍ إلاّ عندنا خزائنُه وما ننزِّله إلاّ بقدرٍ معلوم﴾. (الحجر: ٢١)

وهذا التقدير في إفاضة الرحمة من جـانب الله تعالى، والذي تشير اليه الآيات الكريمة يتبع قابلية الممكنات الذاتية في إستيعاب وقبول رحمة الله تعالى.

هذا هو جانب من السنن الإلهية في إفاضـة الرحمة على مواطن الفقر والحاجة غير الـواعية، إختصرنـا الحديـث فيه إختصاراً شـديداً، وهو بـاب واسع مـن العلم والمعرفة، لعل الله تعالى أن يتيح له من يدخله بصورة علمية واسعة.

الفقر الواعي أو (الدعاء)

وفي مقابـل مواطن الحاجـة اللاواعية والفقر الـلاواعي التي تستنزل رحمـة الله تعالى... هناك نحو آخر من الحاجة والفقـر تتلبس بالوعي، وتأخذ صورة «الطلب» و«السـؤال» و«الـدعـاء» ... وكـلاهمـا «طلـب»، إلا أن القسـم الأول طلـب بلسـان «الاستعـداد» و«ولسـان الحال»، والقسـم الثـانـي بلسـان «المقال»، وهـو الطلـب الواعي.

وكما يستجيـب الله تعـالى للنـوع الأول من الحـاجة والطلـب ويفيض عليهـا برحمته، كذلك يستجيـب تعالى لهذا النوع من الطلب الواعـي ويفيض على مواطنه برحمته الواسعة ... وكلاهما مهبط رحمة الله.

إلا أن قابلية الطلب الـواعي «الدعاء والسؤال» على إستيعاب رحمـة الله تعالى أوسع من الطلب اللاواعي.

و«الدعاء» مفتاح رحمة الله تعالى... يقول تعالى:

﴿ادعوني أستجب لكم﴾. (غافر: ٦٠)

عن أمير المؤمنين عليه السّلام:

«الدعاء مفتاح الرحمة». [(١)]

وعنه عليه السّلام أيضاً:

«ثم جعل في يدك مفاتيح خزائنه، بما أذن فيه من مسألته... فمتى شئت إستفتحت بالدعاء أبواب خزائنه». [(٢)]

وعن الإمام الصادق عليه السّلام من قول الله تبارك وتعالى:

«ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها» الدعاء. [(٣)]

وعن أمير المؤمنين عليه السّلام:

«من قرع باب الله سبحانه فتح له». [(٤)]

وعن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم:

«من فتح له من الدعاء منكم فتحت له أبواب الإجابة». [(٥)]

وعن الإمام الصادق عليه السّلام:

«أكثر من الدعاء فإنه مفتاح كل رحمة، ونجاح كل حاجة، ولا ينال ما عند الله إلا بالدعاء، وليس باب يكثر قرعه إلا يوشك أن يفتح لصاحبه». [(٦)]

سنن إستجابة الدعاء

كما إن لله تعالى سنناً دقيقة ومحددة ومضبوطة في الإفاضة على مواطن الفقر

(١) بحار الأنوار٩٣/ ٣٠٠.

(٢) بحار الأنوار٧٧/ ٢٠٤.

(٣) بحار الأنوار٩٣/ ٢٩٩.

(٤) غرر الحكمة.

(٥) كنز العمال ح٣١٥٦.

(٦) بحار الأنوار٩٣/ ٢٩٥.

والحاجة بلسان الاستعداد والحال «الفقر غير الواعي»، كذلك لله تعالى سنن دقيقة ومحددة في الافاضة على مواطن «الفقر الواعي»، وفي الاستجابة لدعاء العباد، وكل يجري بموجب سنن وقوانين دقيقة ومضبوطة، وليست إستجابة الدعاء بمستثناة من هذه السنن.

ومن أهم هذه السنن في الاستجابة للدعاء معرفة الله تعالى حق معرفته من قبل السائل والداعي ...

قال قوم للصادق عليه السّلام:

«ندعو فلا يستجاب لنا، قال: لأنكم تدعون من لا تعرفونه». (١)

فعلى قدر المعرفة تكون إستجابة الدعاء ...

ومن سنن الله تعالى في الاستجابة للدعاء أن يصدر الدعاء عن قلب نقي طاهر، ولسان صادق ...

ففيما روي من الكلمات القدسية من خطاب الله تعالي لرسوله وكليمه موسى عليه السّلام:

«يا موسى أُدعني بالقلب النقي، واللسان الصادق». (٢)

وسئل أمير المؤمنين عليه السّلام عن قول الله تعالى: «إدعوني أستجب لكم»، فما لنا ندعو فلا نجاب، قال: إن قلوبكم خانت بثمان خصال: أولها أنكم عرفتم الله فلم تؤدوا حقه كما أوجب، فما أغنت عنكم معرفتكم شيئاً ... فأي دعاء يستجاب لكم مع هذا، وقد سددتم أبوابه وطرقه». (٣)

ومن سنن الله تعالى في إستجابة الدعاء، أن يقترن الدعاء بالعمل والطلب من الله تعالى بالحركة ...

(١) بحار الأنوار٩٣/ ٣٦٨.

(٢) بحار الأنوار٩٣/ ٣٤١.

(٣) بحار الأنوار٩٣/ ٣٧٦.

عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم :

«الداعي بلا عمل ، كالرامي بلا وتر» . (١)

ومن سنن اللـه تعالى في الاستجابة للـدعاء ، إقبال القلب على الله تعـالى في الدعاء ...

عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم :

«إعلموا أن الله لا يقبل دعاء عن قلب غافل» . (٢)

وعنه صلّى الله عليه وآله وسلّم :

«لا يقبل الله عز وجل دعاء عن قلب ساه» . (٣)

وسئل النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم عن إسـم الله الأعظم ، فقـال : «كل إسـم من أسماء الله أعظم ، ففرغ قلبك من كل ما سواه ، وأدعه بأي إسم شئت» . (٤)

وعن الإمام الصادق عليه السّلام :

«إن الله عز وجل لا يستجيب دعاء بظهر قلـب ساه ، فاذا دعوت فأقبل بقلبك ثم استيقن الاجابة» . (٥)

ومن سنـن الله تعـالى في الاستجـابة للـدعاء أن يرق قلـب الداعـي ، ويلين ، وتذرف دموعه ، ويخشع في دعائه ...

عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم :

«إغتنم الدعاء عند الرقة ، فإنها رحمة» . (١)

وعن الصادق عليه السّلام :

(١) بحار الأنوار٩٣/ ٣١٢ .

(٢) بحار الأنوار٧٧/ ١٧٣ .

(٣) بحار الأنوار٧٧/ ٥٧ .

(٤) بحار الأنوار٩٣/ ٣٢٢ .

(٥) بحار الأنوار٩٣/ ٣٠٥ .

«إذا أرق أحدكم فليدع، فإن القلب لا يرق حتى يخلص». (٢)

وعن الإمام الصادق عليه السّلام أيضاً: «اذا إقشعر جلدك ودمعت عيناك، ووجل قلبك، فدونك دونك فقد قصد قصدك». (٣)

ومما أوحى الله تعالى الى موسى بن عمران عليه السّلام: «يا موسى كن اذا دعوتني خاشعاً، مشفقاً، وعفر وجهك في التراب، واسجد بمكارم بدنك، واقنت بين يدي في القيام وناجني حيث تناجيني بخشية من قلب وجل». (٤)

ومن سنن الله تعالى في الاستجابة للدعاء إيقان العبد بالاستجابة وحسن ظنه بربه سبحانه...

عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «ادعوا الله وأنتم موقنون». (٥)

وعن الإمام الصادق عليه السّلام: «اذا دعوت فأقبل بقلبك وظن حاجتك بالباب». (٦)

وعنه عليه السّلام: «اذا دعوت فظن أن حاجتك بالباب». (٧)

ومن سنن الله تعالى في الاستجابة للدعاء الإلحاح في الدعاء: عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «أن الله يحب السائل اللحوح». (٨)

عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السّلام: «إن الله كره إلحاح الناس بعضهم على بعض في المسائلة، وأحب ذلك لنفسه». (١)

(١) بحار الأنوار ٩٣/ ٣١٣.

(٢) بحار الأنوار ٩٣/ ٣٤٥.

(٣) بحار الأنوار ٩٣/ ٣٤٥.

(٤) بحار الأنوار ٩٣/ ٣٠٥.

(٥) بحار الأنوار ٩٣/ ٣٠٥.

(٦) الكافي ٢/ ٤٧٣ و بحار الأنوار ٩٣/ ٣٠٥.

(٧) الكافي ٢/ ٤٧٣ و بحار الأنوار ٩٣/ ٣٠٥.

(٨) بحار الأنوار ٩٣/ ٣٧٤.

وعن علي أمير المؤمنين عليه السّلام: «فألحح عليه في المسألة يفتح لك أبواب الرحمة». [٢]

ومن سنن الله تعالى في الاستجابة للدعاء أن يقبل الانسان على الله تعالى من الباب الذي أمره الله تعالى، فإن الله تعالى قد شخص أبواباً لمعرفته وطاعته ودعائه، فمن أقبل على الله من غير هذا الباب لا يجد الاستجابة، وهو ولاية أولياء الله وأحبائه وأصفيائه.

فإن الله تعالى يقول كما في الرواية: «إني أحب أن أطاع من حيث أريد». [٣]

وعن أبي جعفر الباقر عليه السّلام في قوله تعالى: ﴿**وأتوا البيوت من أبوابها**﴾ قال: يعني أن يأتي الأمر من وجهه-أي الأمور كان. [٤]

وقد روي عن أبي عبد الله الصادق عن أبيه عن علي بن الحسين عليه السّلام: قال: مرّ موسى بن عمران على نبينا وآله وعليه السّلام برجل وهو رافع يده الى السماء يدعو الله، فانطلق موسى في حاجته، فغاب سبعة أيام ثم رجع اليه وهو رافع يده الى السماء فقال: يا رب هذا عبدك رافعاً يديه اليك، يسألك حاجته، ويسألك المغفرة منذ سبعة أيام لا تستجيب له، قال: فأوحى الله: يا موسى لو دعاني حتى تسقط يداه، أو ينقطع لسانه ما أستجبت له حتى يأتيني من الباب الذي أمرته. [٥]

وروي أن رجلاً من بني إسرائيل إجتهد أربعين ليلة ثم دعا فلم يستجب له، فأتى عيسى بن مريم يشكو اليه ما هو فيه، ويسأله الدعاء، فتطهر عيسى وصلى، ثم دعا فأوحى الله اليه: يا عيسى إن عبدي أتاني من غير الباب الذي أُتى منه، إنه دعاني وفي قلبه شك منك. [١]

(١) بحار الأنوار٧٨/ ١٧٣.

(٢) بحار الأنوار٧٧/ ٢٠٥.

(٣) بحار الأنوار٢/ ٢٦٢.

(٤) بحار الأنوار٢/ ٢٦٢.

(٥) بحار الأنوار٢/ ٢٦٣.

ومن سنن الله تعالى في الاستجابة أن يجري الدعاء في مجرى سنن الله، فلا يطالب الداعي خلاف ما تجري عليه سنن الله قال:

فإن الله تعالى لم يستجب لدعاء عبده ورسوله نوح عليه السّلام حين أشار نوح عليه السّلام الى نجاة إبنه **﴿ونادىٰ نوح ربَّه فقال ربِّ إنَّ ابني من أهلي وإنَّ وعدك الحقُّ وأنت أحكم الحٰكمين*قال يٰنوح إنَّه ليس من أهلك إنَّه عَمَلٌ غيرُ صٰلح فلاتسئلن ما ليس لك به علمٌ إنّي أعظك أن تكون من الجٰهلين﴾**. (هود: ٤٥-٤٦)

وحيث ذكرنا دعاء العبد الصالح نوح عليه السّلام وعدم إستجابة الله تعالى لعبده نوح، فلابد أن نشفع ذلك بأدب نوح عليه السّلام مع ربه وتراجعه السريع عن طلبه **﴿قال ربِّ إنّي أعوذ بك أن أسئلك ما ليس لي به علم وإلّاتغفر لي وترحمني أكن من الخٰسرين﴾**. (هود: ٤٧)

ويقول تعالى لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في الدعاء للمشركين **﴿استغفر لهم أو لاتستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرَّة فلن يغفر اللّه لهم ذٰلك بأنَّهم كفروا باللّه ورسوله واللّه لا يهدي القوم الفٰسقين﴾**. (التوبة: ٨٠)

ويقول تعالى: **﴿ما كان للنَّبيِّ والَّذين ءَامنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربىٰ من بعد ما تبيَّن لهم أنَّهم أصحٰب الجحيم﴾**. (التوبة: ١١٣)

مشهد من اقتران الفقر اللاواعي بالفقر الواعي

ومن المشاهد الرائعة في إقتران نوعين من الطلب والفقر «الواعي واللاواعي» قصة عطش الطفل الرضيع إسماعيل وأُمه هاجر عليهما السّلام، عندما تركهما إبراهيم عليه السّلام بأمر من الله في واد غير ذي زرع بموضع البيت الحرام اليوم، فنفد ما لديهم من ماء وغلب العطش بالطفل الرضيع إسماعيل في هجير تلك الصحراء القاحلة، فأخذ يضطرب ويتقلب ويصرخ في طلب الماء «وهذا هو الطلب والحاجة اللاواعية بلسان

(١) بحار الأنوار٢٧/ ١٩١ح٤٨.

الحال مـن الطفل الصغير إسماعيـل» بينما أخذت أمـه تهرول من الصفا الـى المروة وبالعكس بحثاً عن المـاء وتطلب وتتضرع الى الله تعالى أن يسقي طفلهـا شربة ماء «وهذا هو الطلـب والفقر الواعي المتمثل في الـدعاء» فاستجاب الله تعالـى لحاجة الطفل وطلـب أمه وفجر تحـت أقدام الطفل الرضيـع عين زمزم، فسقـت الأُم طفلها بماء زمزم، وقـد أبقى الله تعالى كل معـالم هذا المشهد الى اليوم مـن «زمزم» و«من السعي بين الصفا والمروة» ليشهد أجيال المؤمنين معالم هذه القضية التاريخية ذات الدلالات العجيبة، وليـروا بأعينهم أن رحمة اللـه تعالى قريبـة من عباده كلما كـانت هناك حـاجة وطلـب حقيقي، وكلمـا إنقطع الانسان الـى الله تعـالى وتضـرع اليه، وحصر أمله ورجائَه فيه تعالى.

الدعاء «وعي الفقر» وليس «توعية بالفقر»

وحقيقة الدعـاء أمران الحاجة والفقـر الى الله وهذا هـو العنصر الأول، ووعي الحاجـة والفقر الـى الله وهـذا هو العنصر الثـاني ونقصـد بالعنصـر الثانـي أن يعي الانسان حاجته وفقره الى الله تعالى، والـدعاء إبراز وتعبير عن «وعي الحاجة والفقر الى الله»، وليس الدعاء توعية وتعريف هـذا الفقر والحاجة الى الله تعالى، فإن الله عليم بما في أنفسنا، لا تخفى عليه خافية مما في نفوسنا، وليس سبحانه بحاجة الى تعريـف وتوعية منا بمـا يحتاج اليه، فهـو تعالى أقـرب الى الانسان من نفسـه، وهو تعالى يحـول بين الانسان ونفسه... وإنما نحـن بحاجة في مقام إستنـزال رحمة الله تعالى أن نسبغ صفة الوعي على حاجتنا وفقرنا اليه تعالى فإن الفقر والحاجة الى الله بنفسها تستنزل رحمة الله عز وجل، فاذا إقترن بهـذه الحاجة والفقر وعي الحاجة الى الله كانت الحاجة أكثر إستيعاباً وإجتذاباً لرحمة الله.

ولهذا السبب نلاحظ أن حالات الانكسار والتـذلل والخشوع وإقبال القلب في الدعاء والرقة تضاعف من قيمة الدعـاء وقابليته لإجتذاب رحمة الله تعالى، فإن هذه الحالات في حقيقتها تكريس وتعميق لوعي الانسان بحاجته وفقره الى الله تعالى.

والاضطرار الى الله تعالى في المهمات بنفسه يستنزل رحمة الله، ولكن الشعور بهذا الاضطرار والاحساس به يضاعف قيمة الدعاء وقابليته لإجتذابه وإستنزال رحمة الله تعالى.

ولإستجابة الدعاء علاقة مباشرة بوعي الفقر والحاجة الى الله فكلما يكون هذا الوعي أعمق يكون الانسان أقرب الى الله تعالى، وكلما يكون إحساس الانسان بلجوئه الى الله وإضطراره الى الله تعالى أكثر تكون الاستجابة أقرب اليه. فالدعاء حاجة وطلب، وكلما تكون الحاجة أكثر والطلب في نفس الداعي أعمق تكون الاستجابة أقرب الى العبد.

الرحمة «الرحمانية» والرحمة «الرحيمية»

كلمة «الرحمن» و«الرحيم» الواردتان في البسملة مشتقتان من الرحمة، إلا أن الرحمن لما كانت على صيغة المبالغة فإنها تفيد عموم الرحمة وشمولها للمؤمنين وغير المؤمنين، وأما كلمة «الرحيم» فإنها لما كانت على نحو الصفة المشبهة فإنها تفيد الدوام والاستمرار وهي تناسب الرحمة النازلة على خصوص المؤمنين لإستمرار هذه الرحمة للمؤمنين في الدنيا والآخرة.

ولذلك ذكر بعض المفسرين أن الرحمة «الرحمانية» تعم المؤمنين وغير المؤمنين في الدنيا، والرحمة «الرحيمية» تخص المؤمنين فقط، ولكن في الدنيا والآخرة.

... أقول اذا صح هذا التفريق بين الرحمن والرحيم فإن الرحمة التي تفيض على مواطن الفقر والحاجة «من غير وعي» تناسب أن تكون من الرحمة «الرحمانية» والرحمة التي تفيض على مواطن الدعاء والسؤال من قبل المؤمنين يناسب أن تكون من الرحمة الرحيمية ... نقول هذا ولا نريد أن نصر على هذه النقطة من الحديث، ونتجاوزها.

إذن قضية «الفيض» تتلخص في طرفين إثنين الطرف الأول منهما هو إفاضة

الرحمة من جانب الله تعالى والطرف الثاني هو الفقر والحاجة والطلب في مواطن الفقر والحاجة من عالم الإمكان.

عود الى مسألة شرح الصدر

بعد هذه الجولة في مسألة إفاضة الرحمة من لدن الله تعالى على عالم الامكان... نعود الى ما كنا بصدده من مسألة «شرح الصدر» فنقول إن من الرحمة النازلة من لدن الله تعالى على الانسان المعرفة والنور واليقين والاسلام والهدى... وهذا نحو من الرحمة تنزل على الانسان من عند الله، ﴿**أَوَ مَنْ كان ميتاً فأحيينٰه وجعلنا له نوراً يمشي به في النّاس**﴾. (الأنعام: ١٢٢)

﴿**أفمن شرح اللّـه صدره للإسلـٰم فهو علىٰ نور من ربّه**﴾. (الزمر: ٢٢) وليس للانسان فيه شأن، وإنما الشأن كل الشأن فيه للـه تعالى ينزله على عباده، ومن لم ينزل الله تعالى عليه نوراً من عنده فما له من نور:

﴿**ومن لم يجعلِ اللّه له نوراً فما له من نور**﴾. (النور: ٤٠)

وموطن هذا النور هو «الصدر»، ومهما يكن الصدر أوسع يكن حظه من هذا النور أكثر، فمن الناس من لا يتلقى من نور الله تعالى إلا القليل، والا بصيصاً من النور ومن الناس من يتسع صدره للكثير والعظيم من هذا النور، فيعمر هذا النور صدره.

وقلة حظوظ الناس وكثرة حظوظهم من نور اللـه تعالى لا يرجع الى إختلاف في إفاضة النور على الناس فإن هذا النور نور واحد متصل يفيض من لدن الله تعالى من غير حدود، وإنما يعود إختلاف حظوظ الناس منه الى إختلاف صدورهم من حيث السعة والضيق، فمن آتاه الله صدراً واسعاً وشرح صدره تلقى الكثير من هذا النور، ومن ضاق صدره فلا يأخذ من هذا النور الا القليل ومن إنغلق صدره دونه فلا يأخذ منه شيئاً على الإطلاق.

إذن الشأن، كل الشأن، في إختلاف حظوظ الناس من هذا النور الإلهي هو

في هذا الإناء الذي يسميه القرآن «صدراً» وينزل عليه النور من عند الله .

وكما أن هذا النور ينـزل من عند الله وليس للانسـان فيه شأن ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ . (النور: ٤٠)

... كذلـك أمر الإناء الذي يتلقـى هذا النور من عنـد الله وهو الصدر بيـد الله تعالى ، فإن الله هو الذي يشرح الصدور، وليس من شأن للانسان في شرح الصدره .

وقد رأينـا فيما سبق مـن هذا الحديـث أن القرآن ينسـب شرح الصدر الـى الله تعالى .

﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ . (الإنشراح : ١)

﴿فمن يرد الله أن يهديَه يشرحْ صدره للإسلـٰم﴾ . (الأنعام : ١٢٥)

﴿قال ربِّ اشرح لي صدري﴾ . (طه : ٢٥)

وبقدر مـا يشرح اللـه تعالـى صدور عبـاده تتلقى هـذه الصدور النـور واليقين والاسلام من عند الله .

مفاتيح شرح الصدر

المفاتيح الثلاثة لرحمة الله تعالى :

مفاتيح رحمة الله تعالى عامة ومفاتيح شرح الصدر خاصة ثلاثة .

ووعي هذه الثلاثـة ينفع الانسان كثيراً في إستنزال رحمة الله تعـالى ، فإن رحمة الله تنزل على هذه المواطن .

فهناك جانب واسـع من رحمة الله تعالى ينزل على الكـون وعلى عباده من دون سؤال وطلب ومن دون عطاء وجهد «يا من يعطي من سـأله يا من يعطي من لم يسأله تحنناً منـه ورأفة» وهو جانـب واسع من رحمة اللـه الواسعة ، ولا يحتاج الانسـان من هذه المساحـة من الرحمة الإلهية الا أن يتلقـى ويأخذ ، فما دام يأخـذ يعطي وما دام الانسان يتلقى تلقى اليـه الرحمة ، ولا حد لهذه الرحمة النازلـة على الكون والعباد الا وعاء الكـائنات مـن ملك وإنسان وجـن وحيوان ونبات وجمـاد في التلقـي والاخذ ،

ووعـاء الانسان فـي تلقي هـذه الرحمـة من أوسـع الأوعية فـي هذا الكـون، الال أن يستكبر الانسان ويـأبى ويرفض أن يأخذ مـن رحمة الله وكثيرون من النـاس يعرضون عن رحمـة الله ويرفضـون الرحمة النـازلة اليهـم ويتعاملون معهـا بالرفـض والامتناع والاستكبار والاعراض... وأولئك هـم البائسون الأشقياء، تنزل عليهم رحمـة الله من دون سؤال وطلب ومن دون مقابل من عناء وجهه فيرفضونها ويردونها.

ومفتاح هذا الشطر العظيم من رحمة الله تعالى هو «الأخذ والاستجابة فقط».

وجانب آخر من رحمة الله الواسعـة تنزل على الانسان عند السؤال والطلب ولا يعطاها من دون سؤال وطلب، وهذه هي الرحمـة التي ينزلها الله تعالى على الانسان عند الـدعاء وبالدعـاء فإن الدعاء، كمـا قدمنا مفتاح لجـانب عظيم من رحمـة الله تعالى واللـه تعالى كما يحب من عبـاده أن يستجيبوا ويأخذوا ويتلقوا مـن رحمته ما ينزل من دون سـؤال وطلب، كذلك يجب لعبـاده أن يسألوه ويطلبوا منـه ويلحوا في السؤال والطلب والدعاء.

﴿وإذا سـألـك عبـادي عنّـي فـإنّـي قـريـب أجيـب دعـوة الـدّاعِ إذا دعان﴾. (البقرة: ١٨٦)

﴿ادعوا ربّكم تضرُّعاً وخفيةً إنَّه لايحبُّ المعتدين﴾. (الاعراف: ٥٥)

﴿وقال ربُّكم ادعوني أستجب لكم﴾. (غافر: ٦)

﴿واسئلوا اللّه من فضله﴾. (النساء: ٣٢)

وهذا شطر آخر عظيم من رحمة الله تعالـى ينزل على الانسان بالدعاء والسؤال والطلـب، وهو يختلـف عن الشطـر الأول الذي كـان ينزل مـن دون سؤال وطلـب، ومفتاح هذا الشطر هو الدعاء.

وشطر ثالث مـن رحمة الله تعالى، ينزل على العباد بـالعمل والجهد والعطاء، وفي مقـابل العمل والجهـد والعطاء، وليس معنـى المقابلـة التكافؤ، فـلا يمكن أن يكافىء جهد الانسان المقل رحمة الله الواسعة وأي شيء يكافىء رحمة الله، وإنما جهد الانسـان وتوفيـق الانسان للعطـاء في سبيـل الله تعـالى بشـيء من فضـل الله

ورحمته .

وإنما نقصد بالمقابلة أن الرحمة تنزل في مقابل العمل والجهد والعطاء، وهو ما يسمى بـ«الجزاء» والجزاء في الدنيا والآخرة، هو شطر عظيم من رحمة الله تعالى ينزل على مواطن العمل والجهد والعطاء .

والقرآن يعبّر عن هذا الشطر العظيم من رحمة الله تعالى بصيغة التعامل، والتجارة، والبيع، والشراء بين الله وعباده وهو ما نقصده من «المقابلة للعطاء والجهد» .

يقول تعالى :

﴿إنَّ اللّه اشترىٰ من المؤمنين أنفسهم وأموٰلهم بأنَّ لهم الجنَّة﴾ . (التوبة : ١١١)

﴿يـٰأيُّها الَّذين ءَامنوا هل أدلُّكم علىٰ تجـٰرةٍ تنجيكم من عذاب أليم﴾ . (الصف : ١٠)

﴿يرجون تجـٰرةً لن تبور﴾ . (فاطر : ٢٩)

وهذا شطر واسع من رحمة الله تعالى مفتاحه العمل والعطاء والجهد .

والآن نتحدث في ضوء هذا التشخيص عن مفاتيح شرح الصدر، وهي بطبيعة الحال على ثلاثة أقسام :

فمن مفاتيح شرح الصدر، الاستجابة والتلقي والأخذ وعدم الإعراض عن رحمة الله تعالى، وهذا هو القسم الأول من مفاتيح شرح الصدر.

والقسم الثاني من مفاتيح الشرح الدعاء والسؤال والإنابة الى الله .

والقسم الثالث من مفاتيح الشرح العمل والجهد والعطاء ومن أهم مفردات هذا القسم التقوى والاخلاص لله تعالى .

وفيما يلي دراسة موجزة عن مفردات هذه الاقسام جميعاً :

١ - الاستجابة وعدم الإعراض

القبول والاستجابة لرحمة الله تعالى هو المفتاح الاول لرحمة الله تعالى، وهو

يخص الرحمة النازلة على الخلق والعباد من دون سؤال وطلب «يا من يعطي من سأله يا من يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه» والله تعالى يشرح صدور عباده للهدى والنور والمعرفة واليقين من دون سؤال وطلب، كما يشرح صدور عباده بالسؤال والطلب والدعاء، فهو مائدة ممدودة وموصولة للعباد من قبل الله تعالى، كما أن نعمة الاسلام واليقين كذلك نعمة ممدودة وموصولة للعباد من لدن الله ... وليس على الانسان ليستفيد من هذه المائدة الإلهية التي أعدها الله تعالى لعباده الا أن يستجيب، فإن لم يستجب وانغلق على هذه النعمة الموصولة من جانب الله، فهو فقط المسؤول عن حرمانه من نعمة شرح الصدر.

وهذا غاية الجود والكرم من جانب الله أن يبذل نعمه لعباده من دون سؤال وطلب، واذا انغلق العبد على هذه النعمة التي وفرها الله لعباده ولم يستجب، ويتصامم عنها ويتعامى، فذلك غاية اللؤم من الانسان.

إن السماء لتمطر الارض بوابل من المطر، تشرب منه الارض وتخضر وتزدهر وتثمر، برحمة الله، فاذا تصلبت قطعة صخرية من الارض على هذه الرحمة النازلة وصدتها عن نفسها ... حرمت عن هذه الرحمة، كذلك الأمر في رحمة الله فليس في ساحة رحمة الله بخل ولا شح فإنها تنزل من دون حساب وبلا حدود.

وكما يصح الامر في القضايا التكوينية، يصح كذلك في القضايا الإرادية التي يعود الامر فيها الى إرادة الانسان و إختياره ... فإن الانسان الذي ينغلق بإختياره على دعوة الله تعالى الى الاسلام ويصد هذه الرحمة عن نفسه، ويغلق صدره دونها فهو المسؤول عن حرمانه عنها.

إن الله تعالى إذ يدعو عباده الى الاسلام يشرح صدورهم له، ويجري الامرين معاً: الدعوة الى الاسلام وشرح الصدر للاسلام ليتلقى هذا ذاك، فاذا إستجاب الانسان لدعوة الله تعالى شرح الله صدره وأنزل على صدره نور العلم واليقين والاسلام، واذا أغلق صدره وتصامم عن هذه الدعوة وتعامى عنها، وضاق صدره بها ... لم يشرح الله له صدراً، ولم ينزل الله على صدره هذا النور الذي ينزله على

صدور الصالحين من عباده . (١)

الاستجابة والإعراض

والقرآن يدعو عباد الله الى الاستجابة لدعوة الله تعالى :

﴿يـٰأيّها الّـذيـن ءامنـوا استجيبـوا للّـه وللـرّسـول إذا دعـاكـم لمـا يحييكم﴾ . (الإنفطار: ٢٤)

﴿استجيبوا لربّكم من قبل أن يأتيَ يوم لا مردّ له من اللّه﴾ . (الشورى : ٤٧)

وفي مقابل الاستجابة حالة الكفر، وهي حالة الصدود والإعراض في مقابل حالة الاستجـابـة **﴿إنّ الّـذيـن كفـروا وصـدّوا عـن سبيـل اللّـه قـد ضلّـوا ضلـٰلاً بعيداً﴾** . (النساء : ١٦٧)

﴿الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل اللّه أضلّ أعمـٰلَهم﴾ . (محمد : ١)

﴿إنّ الّذيـن كفروا وصدّوا عـن سبيل اللّه وشاقّـوا الرّسولَ مـن بعد ما تبيّـن لهم الهُدىٰ لن يضرّوا اللّهَ شيئاً﴾ . (محمد : ٣٢)

وهذه حالة كفر وصدود ومشاقة للرسول من بعد ما تبين لهم الهدى .

والذيـن يكفرون باللـه تعالـى ويجحدون بآيـات الله ، ويعرضـون عن اللـه لن يهديهم الله لا لأن الله لا يحب هدايتهم ، وإنما لأنهـم يرفضون الهداية والدعوة من الله تعالى .

﴿كيف يهدِى اللّهُ قوماً كفروا بعد إيمـٰنِهم﴾ . (آل عمران : ٨٦)

والإعـراض والإنغلاق والكفـر علـى أنواع ، فمنـه الإعـراض عـن الإيمان وهـو الجحود والكفر وتكذيب آيات الله ولقاء الآخرة .

(١) الأمـران يجريـان معاً، وفرزهما عـن بعض يحتـاج الى دقـة . . . فـالله تعـالى يشـرح صدور عبـاده ويملئها نـوراً وعلماً، والامر الثاني يتوقـف على الاول. فاذا أغلق الانسـان صدره لا يحل فيه هذا النور. وبمـا أن الأمرين يجريان معاً وفي وقت واحد، فقد نواجه بعض الصعوبة في تصور تفكيك أحدهما عن الآخر.

يقول تعالى: ﴿وما تأتيهم من ءايةٍ من ءايٰت ربّهم إلاّ كانوا عنها معرضينَ*فقد كذّبوا بالحقّ لمّا جاءهم فسوف يأتيهم أنباؤا ما كانوا به يستهزءونَ﴾. (الأنعام: ٤-٥)

﴿ وكأيِّن من ءايةٍ في السَّمٰوٰت والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون﴾. (يوسف: ١٠٥)

ومنه الإعراض عن التسليم لله والاسلام «الاسلام بمعنى التسليم والطاعة» وهو المشاققة والمحادة والصدود عن سبيل الله.

يقول تعالى: ﴿ومن يشاقق الرَّسولَ من بعد ما تبيَّن له الهدىٰ ويتَّبع غيرَ سبيل المؤمنين نولِّهِ ما تولّىٰ ونُصلِهِ جهنَّم وساءت مصيراً﴾. (النساء: ١١٤)

﴿ألم يعلموا أنَّه من يُحادِدِ اللّه ورسوله فإنَّ له نار جهنَّم خالداً فيها ذٰلك الخزي العظيم﴾. (التوبة: ٦٤)

﴿إنَّ الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل اللّه وشاقّوا الرَّسول من بعد ما تبيَّن لهم الهدىٰ لن يضرّوا اللّه شيئاً﴾. (محمد: ٣٢)

ومنه الإعراض عن شكر نعم الله تعالى، وهو الكفر بنعماء الله. يقول تعالى:

﴿وإذا أنعمنا على الإنسٰن أعرض ونآ بجانبه﴾. (الإسراء: ٨٣)

﴿ألم تر إلى الّذين بدَّلوا نعمتَ اللّه كفراً﴾. (إبراهيم: ٢٨)

﴿أفبنعمت اللّه يجحدون﴾. (النحل: ٧١)

﴿أفبالباطل يؤمنون وبنعمة اللّه هم يكفرون﴾. (النحل: ٧٢)

﴿يعرفون نعمتَ اللّه ثم ينكرونها وأكثرهم الكٰفرون﴾. (النحل: ٨٣)

هذا الإنغلاق والإعراض بكل أقسامه في مقابل الاستجابة لله تعالى.

الإنغلاق بالإرادة والإنغلاق اللاإرادي

وبداية أي إنغلاق وإعراض تتم بإرادة الانسان، وكل إنسان يملك إختيار نفسه

تجاه دعوة الله تعالى.

وتبلغه هذه الدعوة الإلهية من عمق الفطرة، كما تبلغه على لسان الأنبياء وخلفاء الأنبياء والدعاة الى الله، فاذا رفض الانسان وأعرض عن دعوة الله فإن الفطرة وما أودع الله فيها من عوامل الاستجابة تضغط على الانسان بألوان مختلفة من الضغط، كما يستخدم الأنبياء ألوانا من الإنذار والتبشير في توجيهه الى الاستجابة لدعوة الله تعالى... فاذا رفض وأصر على الإعراض والإنغلاق على دعوة الله تعالى فإنه تعالى يسلب عنه ما رزقه من الوعي والقدرة على الاستجابة، ويسلب عنه ما آتاه من البصر والسمع في قلبه، وإن للقلب لبصراً وسمعاً، فيبتليه بالعمى والصمم، كما كان يحب هو أن يتعامى أو يتصامم، والجزاء هنا من سنخ الجريمة، فالذي يريد أن يتعامى عن آيات الله ونعمائه يعميه الله، والذي يحب أن يتصامم عن دعوة الله يبتليه الله بالصمم.

والى هذه المسانخة بين العقوبة والجريمة تشير الآية الكريمة: **﴿في قلوبهم مرض فزادهم اللّه مرضاً﴾**. (البقرة: ١٠)

والتعامي والتصامم في المرحلة الأولى يتم بإرادة الانسان وإختياره ونزوعه للانغلاق على دعوة الله وآياته والإعراض عن الله، ويتم العمى والصمم في المرحلة الثانية بصورة قهرية وخارجة عن إرادة الانسان.

يقول تعالى:

﴿مثلهم كمثل الَّذى استَوقَدَ ناراً فلمّا أضاءت ما حوله ذهب اللّه بنورهم وتركهم في ظلمٰت لايبصرون*صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لايرجعون﴾. (البقرة: ١٨)

﴿أولئك الّذين لعنهم اللّه فأصمَّهم وأعمىٰ أبصـٰرَهم﴾. (محمد: ٢٣)

وهذه الحالة من الإنغلاق القهري هي حالة قساوة القلب أعاذنا الله منها.

وفي هذه الحالة يفقد الانسان كل قدرة على الاستجابة والإنفتاح، ويفقد القلب خاصيته الأساسية في الرقة والخشوع والاستجابة لله والانفتاح والاستنارة بنور الله، فيكون القلب قاسياً، وبيتاً مظلماً، ليس فيه نور، ويكون الصدر حرجاً ضيقاً،

إلا أن يتوب فيتوب الله عليه ويرحمه .

موجبات القسوة والإنغلاق في القلوب[١]

من أعظم أسباب القسوة والإنغلاق في القلوب إرتكاب المعاصي والذنوب، وإن الانسان ليعصي الله تعالى فيطبع الله تعالى على قلبه فيحجب قلبه عن المعرفة، وهو الطبع والرين الذين يشير اليهما القرآن الكريم :

﴿كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ . (المطففين : ١٤)

﴿... أن لو نشاء أصبنٰهم بذنوبهم ونطبع علىٰ قلوبهم فهم لايسمعون﴾ . (الأعراف : ٩٩)

وهذه هي حالة الإنغلاق والحجب عن المعرفة والنور.

عن الاصبغ بن نباتة، قال: قال أمير المؤمنين عليه السّلام: ما جفت الدموع الا لقسوة القلوب، وما قست القلوب الا لكثرة الذنوب .[٢]

وإن الانسان ليرتكب الذنب فيتحول الذنب الى نقطة سوداء في قلبه تتسع بالتدريج وتستوعب كل قلبه فيظلم قلبه، ويفقد النور والوعي، وتصيبه القسوة والإنغلاق .

عن أبي جعفر عليه السّلام، قال: ما من عبد إلا وفي قلبه نكتة بيضاء فاذا أذنب خرج من النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض فاذا تغطى البياض لم يرجع صاحبه الى الخير أبداً، وهو قول الله عزّ وجل: ﴿كلاّ بل ران علىٰ قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ .[١]

(١) إن الفرق بين «القلب» و «الصدر» و «النفس» و «الروح» و «والعقل»، دقيق وخارج عن بحثنا، وهي كما يقول العلامة المجلسي «رحمه الله» في البحار: ٧٠/ ٣٥، ألفاظ متقاربة المعاني ومتداخلة. وعليه فإننا قد نتسامح في إستعمال هذه الكلمات لأجل هذا التقارب والتداخل فيما بينها .

(٢) علل الشرائع١/ ٨٠/ ط نجف -الحيدرية- ١٣٨٥، وبحار الأنوار٧٠/ ٥٥ .

عن أبي عبـد الله الصادق عليه السّلام قال : كـان أبي يقول : مـا من شـيء أفسد للقلب من الخطيئة ، إن القلب ليواقع الخطيئة فمـا تزال به حتى تغلب عليه ، فيصير أسفله أعلاه وأعلاه أسفله . (٢)

وتلك هي حـالة الإنتكاسة في القلـب ، فاذا إنتكس القلب وصـار أعلاه أسفله وأسفله أعـلاه لم ينحجب الإنسـان عن الرؤيـة والمعرفـة فقط ، وإنما يتلقـى القلب الرؤية بصورة معكوسة فيرى الحق باطلاً والباطلَ حقاً .

ثبات ودوام حالة الإنغلاق في الروح ما بعد الموت

إن حالة الإنغلاق والإنقبـاض والقسوة تظهر على الانسان بإرتكـاب المعاصي والذنوب ، فتبدأ النفس اللوامة بمكافحة هـذه الحالة وتوبيخ الانسان على الاستجابة لعوامل الهوى وإرتكـاب المعاصي ، وتعنيفه على ذلك ، ودعوته الـى التوبة والعودة الى اللـه تعالـى ، وتستعمل النفـس اللوامة والضميـر كل وسـائل التعنيف والتـوبيخ والضغط على النفـس ، حتى يقلع الانسان عـن المعصية ، ويتوب الى اللـه تعالى ، فـاذا أقلـع وتاب واستجـاب أزال اللـه تعـالى عنـه حـالـة القسوة والإنغـلاق وشـرح صدره ... وإن لم يستجـب ترسخت بالتدريج هـذه الحالة في نفسه وتأصلـت حالة الإنغلاق والقسوة عنده ، وكلما يمر عليه يوم وهو يصر على معصية الله تعالى ترسخ حالـة الإنغلاق والقسوة أكثر مـن ذي قبل ، وكان التخلص منهـا أصعب كأية حـالة مرضية أخرى لا يتداركها صاحبها في بدايـة حدوثها ... فاذا لم يحصل للانسان قبل وفاتـه تغير في داخـل نفسه ، يحدث في نفسـه إنقلاباً شـاملاً وعميقاً ، ومـات بهذه الحالـة المرضيـة ، فإنهـا تتحول فـي نفسه الى حـالة ثـابتة ودائمـة لا علاج لهـا بعد الموت ، وتتحـول من حالة غيـر محسوسة الـى حالة محسـوسة ، وهي الحالـة التي

(١) الكافي -كتاب الإيمان والكفر- باب الذنوب-حديث رقم ٢٠ .

(٢) أمالي الصدوق : ٢٣٩ ، وأمالي الشيخ الطوسي ٢/ ٥٣ .

يحشر عليها يوم القيامة .

فإن من خصائص يـوم القيامة ظهور سرائر الناس بصورة محسوسـة مرئية ، وهو معنى قوله تعالى عن يوم القيامة «يوم تبلى السرائر» .

فمن الناس من يحشر يوم القيامة بقلب نقي واع وبصيرة نافذة، ومن الناس من يحشر يـوم القيامة أعمـى ، وهو الذي أعـرض عن ذكر اللـه ، وقسى قلبه فـي الحياة الدنيـا ، وانغلق علـى هدى الله ، فيحشـره الله يـوم القيامة أعمـى ويتحول فيـه هذا الإعراض والتعامي من الهدى الى عمـى محسوس وذلك قوله تعالى : **﴿ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشةً ضنكاً ونحشره يوم القيٰـمة أعمىٰ﴾** .

وهذا «العمى» في الآخرة هو الصورة المحسوسة والثابتة للإعراض عن ذكر الله تعالى والإنغلاق وقسوة القلب وضيق الصدر في الدنيا .

يقول ابن سينـا عن هذه الأعراض النفسيـة التي تتحول بعد المـوت الى حالات ثابتة :

«واعلم إن هذه الشواغل التي هي كمـا علمت من أنها إنفعالات وهيئات تلحق النفس بمجاورة البدن إن تمكنـت عند المفارقة كنت بعدها كمـا كنت قبلها ، لكنها تكون كـ«آلام» متمكنة كان عنهـا شغل ، فوقـع اليها فراغ ، فـأدركت من حيـث هي منافية ، وذلك الألـم المقابل لـمثل تلك اللذة الـموصوفة ، وهو ألـم النار الروحانية فوق ألـم النار الجسمانية» . (١)

يقول المحقق نصير الدين الطوسي في شرحه :

«يريـد أن ينبه علـى بقاء الامور المضـادة لكمالات النفس الإنسـانية التـي هي أسباب الشقاوة معها بعد الموت ، وعلى حصول التألم بها حينئذ لحصول سببه»(٢)

إن ابن سينا يريد أن يقول : إن هذه الأعراض التي تلحق النفس -في حالة إقتران النفس بالبدن ، في الحياة الدنيا ، وتشغلها عن ذكر الله ، وتصرفها عن الله تعالى ...

(١) الإشارات والتنبيهات٣/ ٣٥٠/ مطبعة آرمان-١٤٠٣هـ.

(٢) الإشارات والتنبيهات٣/ ٣٥٠.

إن ترسخت في النفس وتأصلت فيها عند مفارقة النفس للبدن «حين تموت» ولم يتمكن الانسان من مكافحتها و إزالتها قبل الموت ... ثبتت في النفس واستقرت فيها بعدالموت .

إلا أن النفس في الحياة الدنيا ، لم تكن تشعر بصورة واضحة ودقيقة بهذه الأعراض المرضية وما فيها من آلام وعذاب ، وذلك لإنشغال النفس في الحياة الدنيا بالبدن ، وهذا الإنشغال ينسيها بالتأكيد جزء كبيراً من هذه الاعراض وآلامها وعذابها ، فاذا فارقت النفس البدن ووقع للنفس فراغ عن الانشغال بالبدن أحست النفس بصورة قوية بعذاب هذه الاعراض والشواغل .

وفي مقابل هذه الاعراض النفسية ، اللذات الروحية للنفس التي كانت النفس عنها في شغل في الحياة الدنيا لانشغالها بالبدن فاذا فرغت من البدن وتخلصت عنها تشعر النفس بلذتها بصورة كاملة ... وكذلك في هذه النقطة الاعراض وعذابها ومعاناتها .

٢ - الدعاء

المفتاح الثاني لشرح الصدر السؤال والدعاء ويشرح الله تعالى صدور عباده بالسؤال والدعاء ، كما يشرح صدور عباده من غير طلب ولا دعاء ولا سؤال ، إلا أن ما يرزق الله عباده من شرح الصدر بالسؤال والدعاء أوسع وأكثر مما يرزق الله تعالى عباده من دون طلب ودعاء فإن الدعاء من أعظم مفاتيح رحمة الله تعالى ... فاذا سأل الانسان ربه سبحانه وتعالى شرح الصدر، وصدق في سؤاله وألح في السؤال والدعاء رزقه الله تعالى ما يطلب من شرح الصدر والرزق هنا يناسب السؤال والدعاء ، فكلما يكون إلحاح المؤمن في الدعاء والتضرع الى الله تعالى أكثر كان حظه من رحمة الله تعالى أوسع .

القرآن كتاب السؤال والدعاء :

وكما أن القرآن كتاب الاستجابة والانفتاح كذلك القرآن كتاب سؤال ودعاء ،

يدعونا فيه الله تعالى الى أن ندعـوه ونطلب منه ونسأله، ويعدنا أن يعطينا اذا دعوناه ويستجيب لنا اذا سألناه، ويرزقنا اذا طلبنا منه .

يقول تعالى :

﴿**وإذا سـألـك عبـادي عنّـي فـإنّـي قـريـبٌ أُجيـب دعـوةَ الـدّاع إذا دعان**﴾ . (البقرة : ١٨٦)

قريب من الداعين، وقريب من دعائهم، يستجيب لهم اذا دعوه .

﴿**ادعوا ربّكم تضرُّعاً وخفيةً إنَّه لايحبُّ المعتدين**﴾ . (الأعراف : ٥٥)

﴿**فادعوا اللّه مخلصين له الدّين ولو كره الكـٰفرون**﴾ . (غافر: ١٤)

﴿**وقال ربُّكم ادعوني أستجب لكم**﴾ . (غافر: ٦٠)

﴿**وللّه الأسماء الحسنىٰ فادعوه بها**﴾ . (الأعراف : ١٨٠)

﴿**قل ما يعبؤا بكم ربّي لولا دعاؤكم**﴾ . (الفرقان : ٧٧)

﴿**واسئلوا اللّهَ من فضله**﴾ . (النساء : ٣٢)

٣- التقوى

ومن مفاتيح شـرح الصدر «التقوى» والورع والالتزام بحدود اللـه تعالى، وهذه قضية ذات وجهين متقابلين :

فـي الوجـه الاول منه نشـرح كيف يحجـب إتبـاع الهوى وارتكـاب المعاصـي والذنوب، الانسان عن المعرفة،

وفي الوجـه الثاني منه نشرح علاقـة التقوى بشرح الصدر وهو ما ذكـرناه من أن «التقوى» مفتاح من مفاتيح شرح الصدر.

أما فيما يتعلق بالـوجه الاول من هذه القضية، فإن القرآن الكريـم يقرر في أكثر من موضع أن إتباع الهوى يحجب الانسان عن النور والمعرفة والهداية .

يقول الله تعالى : ﴿**فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنَّما يتَّبعون أهواءهم ومن أضلَّ ممَّنِ اتَّبع هوىٰه بغير هدًى من اللّه إنَّ اللّه لايهدى القوم الظّـٰلمين**﴾ . (القصص : ٥٠)

وهـذا قرار إلهـي لا يتغيـر «إن الله لا يهـدي القـوم الظالميـن» والـذين اتبعـوا أهواءهم يشملهـم هذا القرار الإلهي ويحجبهم اللـه عن الهداية والمعـرفة، ويجعل صدورهم ضيقة، وقلوبهم منغلقة على هداه ونوره.

و «إتباع الهوى» في هذه الآية الكريمة سبب الانغلاق على دعوة الله والاعراض عنها «فإن لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون أهواءهم» والآية واضحة في تحديد هذه الحقيقة: إن عدم الاستجابة «الانغلاق» نابع من إتباع الهوى.

يقول تعالى: ﴿**أفرأيت من اتَّخـذ إلـٰهه هويٰه وأضلَّه اللّه علـىٰ علم وخَتَمَ علىٰ سمعـه وقلبـه وجعـل علـىٰ بصـره غِشـٰوة فمـن يهـديـه مـن بعـدِ اللّـه أفلاتذكَّرون**﴾. (الجاثية: ٢٣)

والعلاقة في هذه الآية الكريمة أوضح بين إتباع الهوى والحجب والانغلاق.

فالـذين يتخـذون أهواءهم آلهتهـم، ويتبعون أهواءهـم من دون اللـه... أولئك يضلهم الله ويحـرمهم الله عن المعرفـة ويجعل على بصرهم غشـاوة، ويختم على أسماعهم وقلوبهم... وتلك أقصى درجات الانغلاق.

ويقول تعالى: ﴿**أفمن كان علـىٰ بيِّنة من ربِّه كمـن زُيِّن له سوء عملـه واتَّبعوا أهواءهم**﴾. (محمد: ١٤)

والمقابلة هنـا بين أولئك الذيـن جعلهم الله تعالـى على بينة منه والـذين اتبعوا أهواءهـم... وطبيعة هذه المقـارنة تقتضي أن لا يكون هـؤلاء على بينة مـن ربهم وأن يحرمهم الله تعالى، بإتباع الهوى من هذه البينة، ويجعلهم في ظلمات بعضها فوق بعض.

وروي عن الامـام الصادق عليه السّلام، كتب أمير المـؤمنين عليه السّلام الى بعض أصحـابه يعظـه... فارفـض الـدنيا، فـإن حب الـدنيـا يعمي ويصـم ويبكم ويـذل الرقاب[١]...

كذلك يفعـل حب الدنيا وإتباع الهـوى في النفس... يغلق منافـذ النفس على

النور والمعرفة غلقاً كاملاً، وهذا هو الوجه الاول من القضية.

والوجه الثاني في علاقة التقوى بشرح الصدر والانفتاح والمعرفة ... وهذا الوجه الثاني يتضح أمره بالمقابلة مع الوجه الأول، ونجد في القرآن إشارات واضحة الى هذه العلاقة يقول تعالى: **﴿واتَّقوا اللّه ويعلِّمكمُ اللّه﴾**. (البقرة: ٢٨٢)

ويناقش الشيخ محمد عبده فيما ينقله عنه تلميذه الشيخ محمد رضا في تفسير المنار في دلالة هذه الآية المباركة على وجود علاقة بين التقوى والعلم بأن: عطف «يعلمكم على «اتقوا الله» ينافي أن يكون جزاء له ومرتباً عليه لأن العطف يقتضي المغايرة... ثم قال المعروف المعقول أن العلم هو الذي يتم به التقوى فلا تقوى بلا علم فالعلم هو الأصل الاول وعليه المعول». [٢]

واعتقد أن النزعة الصوفية التي عاصرها الشيخ في تفسير الآية الكريمة هي السبب في هذه المناقشة، ونحن نقر الشيخ على إنحراف هذه النزعة في الاستغناء عن التعليم والدراسة والاكتفاء بالذكر والتقوى في كسب العلم... فللعلم والمعرفة أسباب طبيعية من الدراسة والبحث لابد منها ومخالفة ذلك مخالفة لسنن الله تعالى ولسنا نحن نقصد في هذه العلاقة بين التقوى والعلم الاكتفاء بالتقوى عن الدراسة والبحث، وإنما نريد أمراً آخر لا علاقة له بذلك، فإن الدراسة وطلب العلم لا يفتحان صدر الانسان على معرفة الله وعلى معارف الاسلام.

فاذا شرح الله صدر عبده فإنه سوف ينتفع بما يدرس وبما يلقى اليه، وإن لم يشرح الله صدره فلا ينفعه شيء وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو أفضل المعلمين يدعو أبا سفيان وأبا لهب الى الله فلم تكن تنفعهم هداية رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم.

ويقول تعالى **﴿وننزِّل من القرءَان ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولايزيد**

(١) الحياة١/ ١٥٦ - نقلاً عن الكافي٢/ ١٣٦.

(١) تفسير المنار٣/ ١٢٩.

الظّـٰلمين إلاّ خَساراً﴾ . (الإسـراء : ٨٢) وأي علم وأي معلـم أفضل مـن القرآن ومـن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

وكم نجد من علماء كبار في الذرة والفيزياء والكيمياء والطب والنبات يتعاملون باستمرار مـع آيات الله تعالـى فلا ينفذ النور الى قلـوبهم ، ذلك أن الله تعـالى ختم على قلوبهم، وجعل على أبصارهم غشاوة ، وضيق صدورهم من أن ينالوا معرفة الله تعالى وهداه .

وعطف كلمة «يعلمكم الله» على كلمة «واتقـوا الله» في حد نفسه يكشف عن وجود علاقـة بينهما ، فلابد أن يكون بين هـاتين الجملتين علاقة حتى تعقـب الثانية الاولى ، وليس من الضروري أن تبرز هذه العلاقة من خلال الجملة الشرطية فقط .

ويقول تعالى : ﴿يـٰأيُّها الّذين ءَامنوا إن تتَّقوا اللّه يجعل لكم فرقاناً ويكفِّر عنكم سيِّئاتكم ويغفر لكم واللّه ذو الفضل العظيم﴾ . (الأنفال : ٢٩)

والفـرقـان هنـا هو التفـريـق بيـن الحـق والبـاطـل والخير والشـر والاستقـامـة والانحراف ، فـاذا كان الانسان يتقـي الله تعـالى فإن اللـه عزوجل يـرزقه نـوراً وهدى يستطيع بـه أن يفرق بين الحـق والباطل والهوى والهـدى والاستقامة والانحـراف فلا تلتبس الامـور عليه ... ومن دون التقـوى فإن الله يكل الانسـان الى نفسه ، فيقـع في اللبس ، ويتخبط في عمله .

يقول القرطبي في تفسير الآية الكريمة : فاذا اتقى العبد ربه ، وذلك باتباع أوامره وإجتناب نـواهيه ... جعل لـه بين الحق والبـاطل فرقـاناً ورزقه فيمـا يريد مـن الخير إمكاناً . (١)

ويقول السيد الطباطبائي في الميزان في تفسير الآية الكريمة : الفرقان بين الحق والباطل سواء كان ذلك في الاعتقاد بالتفرقة بين الايمان والكفر وكل هدى وضلال أو في العمل بالتمييز بيـن الطاعة والمعصية ، وكل ما يرضي اللـه ويسخط أو في الرأي

(١) تفسير القرطبي ٧/ ٣٩٦ .

والنظر بالفصل بين الصواب والخطأ فإن ذلك كله مما تثمره شجرة التقوى .[١]

فالتقوى تمكن الانسان من الفصل بين الحق والباطل وهذا الفصل والفرقان هو من ثمرات التقوى .

والطريقة التي نفهم بها هذه الآية الكـريمة ونظائرها أن التقوى تكون سبباً لشرح الصدور و إنفتـاح القلوب فـاذا شرح الله صـدور عباده حل فيهـا النور والهـدى من جانب الله ، فيمكن الانسان عندئذ من الفصل بين الحق والباطل .

ويقول تعالى : ﴿**يـٰأيُّها الّذين ءَامنوا اتَّقوا اللّه وءَامِنوا بـرسوله يؤتكم كفلَين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به**﴾(الحديد : ٢٨) فاذا كان الانسان يتقي الله جعل الله فـي صدره هذا النـور الذي يمكنّه من السيـر والحركة فـي المجتمع ومن معـرفة الناس ، وتشخيص الحق عن الباطل ولا يحـل هذا النور في صدور الناس الا بعد أن يشرح الله تعالى الصدور لتلقي هذا النور والمعرفة .

وفي الرواية عن الامام الجواد عليه السّلام : أن الله عزّ وجل يقي بالتقوى عن العبد ما عزب عن عقله ، ويجلي بالتقوى عماه وجهله .[٢]

... وفي هذا النص التقوى يزيل العمى ويفتح بصر الانسان .

وعن أمير المؤمنين عليه السّلام : اعلموا أنـه «من يتق الله يجعـل له مخرجـاً من الفتن ونوراً من الظلم» .[٣]

وعن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في وصيـة الخضر لمـوسى عليهما السلام : يا موسى وطن نفسك على الصبر تلقى الحلم ، واشعر قلبك التقوى تنل العلم ، ورض نفسك على الصبر تخلص من الإثم .[١]

(١) تفسير الميزان٩/ ٥٤/ ط أولى .

(٢) بحار الأنوار٧٨/ ٣٥٩ ، وروضة الكافي٨/ ٥٢ .

(٣) نهج البلاغة الخطبة رقم : ١٨١ .

٤- الإنابة الى الله

ومن مفاتيح شرح الصدر الانابة الى الله تعالى، والانابة الى الله هو الرجوع والعودة الى الله، فإن العبد يعرض عن الله فيحجب الله تعالى عنه المعرفة والعلم والنور، فاذا عاد الى الله تعالى فتح الله على قلبه ينابيع المعرفة، وشرح صدره وأنار قلبه.

يقول تعالى: **﴿أفلم ينظروا إلى السَّماء فوقهم كيف بنَينٰها وزيَّنّٰها وما لها من فروجٍ*والأرض مددنٰها وألقَينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كلِّ زوجٍ بهيجٍ*تبصرةً وذكرىٰ لكلِّ عبدٍ منيبٍ﴾**(ق: ٦-٨) فهذه آيات الله تعالى في السماء والارض، يلتقي بها جميع الناس، على نحو سواء، غير أن المعرضين عن الله تعالى محجوبون عن رؤية الله تعالى وصفاته وأسمائه الحسنى من هذه الآيات، أما المنيبون من عباد الله، الراجعون الى الله فهي لهم تبصرة وذكرى، تمنحهم البصيرة والتذكير بالله تعالى.

ويقول تعالى: **﴿هو الَّذي يُريكم ءَايٰته وينزِّل لكم من السَّماء رزقاً وما يتذكَّر إلّا من ينيبُ﴾**. (المؤمن: ١٣)

إن الله تعالى يرى آياته جميع خلقه وينزل عليهم رزقه من السماء جميعاً، مؤمنين كانوا أم غير مؤمنين إلا أن المنيبين الى الله تعالى والعائدين اليه هم الذين يتذكرون من هذه الآيات، وتذكرهم بالله تعالى وآياته وأسمائه وصفاته الحسنى.

٥- الإخلاص لله

الخامس من مفاتيح شرح الصدر الإخلاص لله، والاخلاص على نحوين:

(١) بحار الأنوار١/ ٢٢٧.

١- إخلاص العمل لله تعالى واليه تشير الآية الكريمة ﴿**وما أُمروا إلّا ليعبدوا اللّه مخلصين له الدّين**﴾ .

٢- إخلاص النفس من عوامل الهوى ومن شوائب الشرك بمعنى تخليص النفس من كل شائبة وهوى، فيكون الانسان عندئذ من «المخلصين-بالفتح-» واليه تشير الآية الكريمة: ﴿... **فإنّهم لمحضرون*إلّا عبادَ اللّه المخلَصين**﴾ . (الصافات: ١٢٧-١٢٨)

الاول هو تخليص العمل وتنقيته، والثاني تخليص النفس وتنقيتها من الشوائب.

والإخلاص الثاني ينبع من الإخلاص الأول، فاذا أخلص الانسان عمله لله تعالى، فإنه سوف يتمكن من إخلاص نفسه وتنقيتها وتصفيتها، واذا صفت نفس الانسان من شوائب الشرك والهوى، وخلصت لله تعالى فإن الله يشرح صدره ويفتح قلبه للهدى والنور، ويفجر المعرفة والحكمة من قلبه على لسانه.

وقد روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم. من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.(١)

وروي أن عيسى بن مريم عليه السّلام كان يقول للحواريين، ليس العلم في السماء فينزل اليكم ولا في تخوم الارض.

والاخلاص من الإحسان، والله تعالى يقول في المحسنين في سياق الحديث عن قصة موسى بن عمران عليه السّلام:

﴿**ولمّا بلغ أشدَّه واستوىٰ ءاتينٰهُ حكماً وعلماً وكذٰلك نجزى**

(١) تتبع السيد محمد حسين الطهراني «حفظه الله» مصادر هذا الحديث فقال رواه من علماء الإمامية الصدوق «رحمه الله» في عيون أخبار الرضا: ٢٥٨، وابن فهد الحلي في عدة الوافي: ١٧٠، والكليني في أصول الكافي٢/ ١٦، والمجلسي في البحار٧٠/ ٢٤٢، ورواه من علماء العامة الغزالي في الأحياء٤/ ٢٧٦، وفي كنز العمال ح٥٢٧١.

المحسنين﴾. (القصص : ١٤)

فالذي آتاه الله تعالى رسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السّلام من الحكم والعلم يؤتيه الله تعالى كل من كان من المحسنين من عباده «وكذلك نجزي المحسنين».

وعن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: ليس العلم بكثرة التعلم، وإنما العلم نور يقذفه الله في قلب من يحب فينتفخ له، وينشرح صدره فيحتمل البلاء، قيل يا رسول الله وهل لذلك من علامة؟ قال: التجافي عن دار الغرور والإنابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله. (١)

وفي خبر عنوان البصري، عن أبي عبد الله الصادق عليه السّلام قال: «فإن أردت العلم فاطلب أولاً في نفسك حقيقة العبودية واطلب العلم باستعماله، واستفهم الله يفهمك». (٢)

المراحل الثلاثة التي تتعقب شرح الصدر

فاذا شرح الله صدر عبد من عباده فإن أول أثر يترتب على ذلك هو نزول نور الله تعالى وهداه والمعرفة والحكمة من لدن الله تعالى على صدره.

وليس في هذا النور والمعرفة النازلة من لدن الله تعالى على عباده من شح أو بخل.

وإنما تختلف الصدور والقلوب في تلقي النور والمعرفة من لدن الله تعالى، فكلما يكون القلب أنقى وأصفى والحجب فيما بينه وبين الله تعالى أقل يكون استعداد القلب لتلقي النور والمعرفة من لدن الله وانفتاحه أكثر، وكلما يكون القلب أكثر إنفتاحاً يكون حظه من قبول وتلقي رحمة الله تعالى أكثر.

عن أبي جعفر الباقر عليه السّلام قال: القلوب ثلاثة: قلب منكوس لا يعي على

(١)

(٢) الكنى والألقاب ٢/ ٧٨.

شيء من الخير، وهو قلب الكافر، وقلب فيه نكتة سوداء، فالخير والشر فيه يعتلجان، فما كان منه أقوى غلب عليه، وقلب مفتوح فيه مصباح يزهر فلا يطفأ نوره الى يوم القيامة وهو قلب المؤمن .(١)

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السّلام عن أمير المؤمنين عليه السّلام : ان قلوب المؤمنين مطوية بالايمان طياً، فاذا أراد الله إنارة ما فيها فتحها بالوحي، فزرع فيها الحكمة .(٢)

فلا يتم إنارة قلوب المؤمنين إلا اذا فتحها الله تعالى، وهو ما ذكرناه من معنى الشرح والبسط، فاذا تولى الله تعالى قلب مؤمن ففتحه للهدى وصدر مؤمن فشرحه للنور فإن النور والمعرفة والحكمة تدخله بإذن الله تعالى .

يقول الفيض الكاشاني رحمه الله في كتابه الكبير المحجة البيضاء في إحياء الأحياء : فاذا تولى الله تعالى أمر القلب فاضت الرحمة وأشرق النور من القلب، وانشرح الصدر، وانكشف له سر الملكوت... وتلألأت فيه حقائق الامور الإلهية، فليس على المريد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة واحضار الهمة مع الارادة الصادقة والعطش التام، والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله من الرحمة، فالانبياء والأولياء إنكشفت لهم الامور، وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة، بل بالزهد في الدنيا والتبري عن علائقها، وتفريغ القلب عن شواغلها، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى : «فمن كان لله كان الله له» .(٣)

وهذه هي المرحلة الأولى من المراحل التي تعقب شرح الصدر وفيها يفيض النور والمعرفة من لدن الله تعالى على قلوب وصدور عباده .

وفي المرحلة الثانية التي تعقب شرح الصدر يخزن قلب المؤمن الحكمة

(١) معاني الأخبار: ٣٩٥ .

(٢) قرب الإسناد: ٢٥١ .

(٣) المحجة البيضاء ٥/ ٣٤ .

والمعرفة، فيكون القلب خزانة لمعرفة الله وكنزاً للحكمة، وقد ورد التعبير عن قلب المؤمن في بعض الروايات والنصوص الاسلامية بخزانة الله.

عن رسول الله صلى الله على وآله وسلم: ناجى داود ربه فقال: إلهي لكل ملك خزانة، فأين خزائنك؟ قال جل جلاله: لي خزانة أعظم من العرش، وأوسع من الكرسي، وأطيب من الجنة وأزين من الملكوت، أرضها المعرفة، وسماؤها الايمان، وشمسها الشوق ... وسحابها العقل ومطرها الرحمة ... وثمرها الحكمة، ولها أربعة أبواب: العلم والحلم والصبر والرضى، ألا وهو القلب.(١)

فيكون قلب المؤمن عيبة لعلم الله كما ورد في نصوص زيارات أهل البيت عليهم السلام... وهو معنى العارف والعالم فليس معنى العالم أن يكون الانسان خزانة للمعلومات فقط بل يكون كنزاً لمعرفة الله تعالى وللحكمة.

وفي المرحلة الثالثة التي تعقب شرح الصدر تتفجر الحكمة على لسان العبد المؤمن وتطبع الحكمة سلوكه وتفيض المعرفة والحكمة والتذكير بالله والدعوة الى الله تعالى من قلبه ولسانه، كما يفيض الماء من العيون لتسقي الاراضي القاحلة من حولها.

وهي حالة طبيعية، فإن القلب والصدر اذا إمتلآ بالمعرفة والحكمة فاضا بالمعرفة والذكر، وكل إناء يفيض بما فيه.

وسوف نتحدث إن شاء الله عن مردودات شرح الصدر فيما يلي بتفصيل أكثر.

مردودات شرح الصدر

هناك مسانخة أكيدة بين «واردات» الصدر والقلب من المعرفة «ومردوداتهما»، وهذه المسانخة كما ذكرنا طبيعية فكل إناء يفيض، لا محالة، بما فيه.

ولما كانت واردات الصدر الذي يشرحه الله تعالى هي المعرفة النازلة من لدن

(١) بحار الأنوار ٧٠/ ٥٩، وتفسير الصراط المستقيم ١/ ٢٥٨.

الله تعالى على صدور عباده فلا محالـة، تفيض هذه الصدور والقلوب بما أنزل الله عليه من المعرفـة ... وهذه المردودات التي تفيض عن صدور المـؤمنين تظهر ظهوراً قهرياً على لسانهم وسلوكهم.

وقد ورد ذكر إجمالي لمردودات «شرح الصـدر» في الحديث المروي عن الامام الصادق عليه السـلام في معنـى شرح الصدر: «أن اللـه عز وجـل يقذف النور فـي قلب المؤمن، فينفسح بذلك قلبه، وينشرح للتسليم لله، والثقة به والسكون الى ما وعده حتى يطمئن اليه.[١]

فالتسليـم لله تعالى، والثقـة به وسكون النفس الـى وعد الله، والطمأنينـة اليه تعالى مـن مردودات شرح الصدر يظهر على سلـوك الانسان في علاقته باللـه تعالى وفي عـلاقته بالمجتمع، وبسـاحة العمل، وبنفسـه، وفيما يلي نحصي بعـض هذه المردودات:

١ - من مردودات الصـدور هي المعرفة، وليـس من عجب فإن مـردود المعرفة معرفة.

فاذا إستنار الانسان المؤمن بمعرفة الله تعالى، وحلت المعرفة في صدره وقلبه وعقله تغيرت رؤيته للأشياء ولمس بوضوح يد الله تعالى وتدبيره وحكمته و إرادته في كـل شيء ... إن النـاس عـامة لا يـرون فـي هـذا الكون غيـر سلسلـة من الاسبـاب والمسببات والعلـل والمعلولات متـرابطة ومتماسكـة، ولسنا ننكـر قانـون العلية ولا إرتباط المسببات بأسبابها، ولكن الذين آتاهـم الله تعالى العلم والمعرفة لا يرون في هذا الكـون، بما في ذلك حـركة التاريخ والمجتمـع غير إرادة الله تعالـى ومشيئته، ويده.

إن المؤمنين الـذين شرح الله صدورهم ليلمسـون يد الله تعالى فـي كل صغيرة وكبيرة من هذا اللـون ويلمسـون حضور إرادة الله في الانقلابـات التاريخية الكبرى،

(١) مستدرك سفينة البحار ٥/ ٣٥٨-٣٥٩.

كما يلمسون حضور إرادة الله في القضايا الصغيرة التي تحدث للناس هنا وهناك ويلمسون حضور إرادة الله في الأحداث الكونية الهائلة في حركة النجوم والمجرات ونظام المجموعة الشمسية كما يلمسون حضور مشيئة الله تعالى في رفيف جناح فراشة تنتقل من غصن الى غصن آخر.

يقول تعالى: ﴿وإلى الله ترُجع الأمور﴾. (آل عمران: ١٠٩ - الأنفال: ٤٥ - الحج: ٧٦ - فاطر: ٤)

﴿إنّ الأمر كلَّه للّه﴾. (آل عمران: ١٥٤)

﴿إنَّ ربَّك فعّال لما يريد﴾. (هود: ١٠٨)

﴿للّه الأمر من قبل ومن بعد﴾. (الروم: ٤)

﴿إنّ ربَّك يفعل ما يريد﴾. (الحج: ١٤)

﴿إنَّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾. (يس: ٨٢)

٢- ومن مردودات الصدور التي يشرحها الله تعالى، اليقين بإحاطة الله تعالى بما في هذا الكون إحاطة كاملة، لا يغيب عنه شيء، ولا تخفى عليه خافية في هذا الكون من صغيرة أو كبيرة ... فكل شيء حاضر عند الله ولا تسقط ورقة صفراء في عمق غابة من هذه الغابات الواسعة المنتشرة في الارض إلا كان الله بها عليما ولا تتحرك موجة على سطح البحر صغيرة كانت أم كبيرة إلا كان الله بها محيطاً.

﴿وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلاّ هو ويعلم ما في البرِّ والبحر وما تسقُطُ من ورقةٍ إلاّ يعلمها ولاحبَّةٍ في ظلمـٰت الأرض ولارطبٍ ولايابسٍ إلاّ في كتـٰبٍ مبينٍ*وهو الَّذي يتوفّيٰكم باليَّل ويعلم ما جَرَحتُم بالنَّهـٰرِ ثمَّ يبعثكم فيه ليُقضىٰ أجلٌ مسمّىً﴾. (الأنعام: ٥٨-٥٩)

٣- ومن مردودات شرح الصدر رؤية إنقياد وطاعة الكائنات في هذا الكون لله تعالى طوعاً وكرهاً وخضوعها وسجودها وتسبيحها لله تعالى.

وإن عامة الناس لا يرون من هذه الكائنات إلا ظاهراً من الأمر، فيرون البحار والجبالـوالاحجار والمعادن والرعد والبرق والمطر والشمس ... وأما الذين فتح الله

تعالى بصيرتهم وشرح صدورهم، فيرون ما وراء هذه الظواهر إنقياد هذه الكائنات لله تعالى عن طوع أو كره، وسجودها لله، وتسبيحها لله، وهذه البصيرة النفاذة التي تمكن أصحابها من تجاوز هذه الظاهر الذي يراه عامة الناس الى عمق الاشياء وباطنها هي مما يمنحها الله تعالى لمن يشاء من عباده، ومن مردودات شرح الصدر يقول تعالى: ﴿ولله يَسجُدُ من في السَّمٰوٰت والأرض طوعاً وكرهاً﴾(الرعد: ١٥)

﴿ولله يَسجُدُ ما في السَّمٰوٰت وما في الأرض من دابَّةٍ والملٰئكة وهم لايستكبرون﴾. (النحل: ٤٩)

وإن الله تعالى ليشرح صدر عباده بالمعرفة فيسمع الانسان تسبيح الكائنات لله تعالى.

﴿ويُسبِّح الرَّعد بحمده والملٰئكة من خيفته﴾. (الرعد: ١٣)

﴿وإن من شيءٍ إلاّ يسبِّح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحَهم﴾. ﴿الإسراء: ٤٤)

﴿ألم تر أنَّ اللّه يُسبِّحُ له من في السَّمٰوٰت والأرض والطَّيرُ صٰفّٰتٍ﴾. (النور: ٤١)

﴿يُسبِّح لله ما في السَّمٰوٰت وما في الأرض له الملك وله الحمد﴾. (التغابن: ١)

وإن عامة الناس يرون الكائنات ويتفاعلون معها، ولكن لا يفقهون لهم تسبيحاً وسجوداً.

٤- ومن مردودات شرح الصدر تبدل الرؤية لدى الانسان... فإن عامة الناس يرون في الكائنات أشياء جامدة غير ذات دلالة ومعنى... أما الذين فتح الله بصائرهم فيرون في الاشياء علامات وآيات ودلالات على الله تعالى... وهذه الاشياء الجامدة والصامتة تنطق لديهم بجلال الله وجماله ورحمته، وهي لديهم علامات وآيات دالات على الله تعالى.

وأنهم ليرون في جمال هذا الكون جمال الله وفي عظمة هذا الكون رشحاً من عظمة الله، وفي إتقان هذا الخلق علم الله وتدبيره.

ولنقرأ هـذه الآيات المبـاركات مـن سورة النحل والـواقعة ونظيـراتها فـي القرآن كثيرة، لنرى كيف يربط القرآن الظواهر الكـونية بالله تعالى ويستخرج لذوي البصائر ما فيها من دلالات وعلامات وآيات على جمال الله وجلاله وتدبيره وحكمته ورحمته تعالى.

﴿هو الَّذي أنزل مـن السَّماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجـر فيه تسيمون*يُنبت لكم بـه الزَّرع والـزَّيتون والنَّخيـل والأعنٰـب ومن كـلِّ الثَّمرات إنَّ فـي ذٰلك لآيـة لقوم يتفكَّرون*وسخَّـر لكم الَّيل والنَّهـار والشَّمس والقمر والنُّجـوم مسخَّرات بأمـره إنَّ في ذٰلك لآيٰـت لقوم يعقلـون*وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إنَّ فـي ذٰلك لآيَة لقوم يذَّكَّرون﴾. (النحل: ١٠-١٤)

﴿أفرأيتم المـاء الَّذي تشربون*ءأنتم أنـزلتموه من المُزن أم نحن المنـزلون*لو نشاء جعلنٰه أجاجاً فلولا تشكرون*أفرأيتم النّار الَّتي تورون*ءأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشِئون﴾. (الواقعة: ٦٨-٧٢)

إن هذه الرؤية القرآنية للكون هي الرؤية التي ينظر من خلالها أصحاب البصائر من عباد اللـه الى الاشياء... آيات رحمة اللـه، وتقديره وتدبيـره، وحكمته، وتفصح لهم هذه الأشياء عـن جلال الله وجماله وعظمته وصفاته وأسمـائه الحسنى وكلماته بينما هي صـامتة جامدة عند الآخـرين، وليس الاختلاف في حـالات الاشياء، تنطق حيناً وتسكت حيناً، وإنما الاختلاف في الرؤى والقلوب والصدور.

٥- ومن مردودات شرح الصدر الثقة بالله تعـالى فاذا آمن الانسان بسلطان الله تعـالـى المطلـق وقـوتـه المطلقـة، **﴿إذا قضـىٰ أمـراً فـإنَّمـا يقـول لـه كـن فيكون﴾**(البقرة: ١١٨)... واذا آمن بصدق وعد الله تعالـى فيما يعد به الله من جزاء المحسنين، ومن نصر المؤمنين... فإنه سوف يضع ثقته المطلقة في الله تعالى، ولا يتردد لحظة واحدة في أن يسلك سبل الصالحين.

يقول الله تعالى: **﴿ومن أصدق من اللّه قيلاً﴾**. (النساء: ١٢٢)

﴿ومن أصدق من اللّه حديثاً﴾. (النساء: ٨٧)

إن مردود الايمان بسلطان الله وصدق وعد الله تعالى هو الثقة المطلقة بالله عز شأنه.

٦- وعندما يستيقن الانسان أن الامر كله في هذا الكون لله تعالى، وهو الحاكم على عباده، من قبل ومن بعد ﴿**يقولون هل لنا من الأمر من شيءٍ قل إنَّ الأمر كلَّه للّه**﴾. (آل عمران: ١٥٤)

﴿**ألا له الحكم**﴾. (الانعام: ٦٢) ﴿**إنِ الحكم إلاّ للّه**﴾. (الانعام: ٥٧)
﴿**لايُسئل عمّا يفعل وهم يُسئلون**﴾. (الانبياء: ٢٣)

عندما يستيقن بهذه الحقيقة الايمانية، فإنه يسلم أمره كله لله تعالى، والتسليم هو المردود الطبيعي لهذا الايمان المطلق بحاكمية الله.

٧- وعندما يؤمن الانسان إيماناً قاطعاً، بأن الله تعالى ﴿**أرحم الرّاحمين**﴾(الأنبياء: ٨٣) و ﴿**ذو الرَّحمة**﴾(الانعام: ٢٣) وأنه ﴿**العليم الحكيم**﴾(البقرة: ٣٢)، ولا يريد الله تعالى به إلا الرحمة والخير، وإن كان يخفى عليه وجه الحكمة في كثير مما يصيبه ... فإنه سوف يرضى بما أراد الله له من سراء وضراء، ويشعر بـ«الرضى» في كل ما يناله من الله تعالى من إبتلاء ... وهذا «الرضى» هو المردود الطبيعي لهذه المعرفة في صدور المؤمنين.

٨- واذا آمن الانسان بحضور الله تعالى ورقابته له، وأنه لا يخفى عليه خافية، وأنه تعالى: ﴿**يعلم خائنةَ الأعين وما تُخفي الصّدور**﴾(المؤمن: ١٩) وأنه ﴿**لا يخفىٰ على اللّه منهم شيء**﴾(المؤمن: ١٦) و ﴿**إنّه عليمٌ بذات الصُّدور**﴾(الشورى: ٢٥١)... اذا آمن الانسان بهذه الحقيقة، فإذن المردود الطبيعي لهذه المعرفة هو مراقبة الانسان لنفسه في السر والعلن.

٩- واذا آمن الانسان بما يخوف الله تعالى به عباده من عذاب أليم يوم القيامة.

﴿**لهم من فوقهم ظللٌ من النّار ومن تحتهم ظللٌ ذٰلك يخوِّف اللّه به عباده يـٰعِباد فاتَّقون**﴾(الزمر: ١٦)... فإنه سوف يخشى الله تعالى ويخافه.

فإن هناك علاقة وثيقة بين المعرفة بالله تعالى والخشية منه **﴿إنَّما يخشى اللّهَ من عباده العُلَمـٰؤا﴾** . (فاطر: ٢٨)

١٠ – واذا آمن الانسان بسعة رحمة الله ، وحرمة القنوط من رحمته ومغفرته ، وآمن بما يحدثنا القرآن من سعة رحمته تعالى : **﴿ورحمتي وسعَت كلَّ شيءٍ فسأكتبُها للَّذين يتَّقون﴾** . (الاعراف: ١٥٥)

﴿... قال ومن يقنطُ من رحمة ربِّه إلاّ الضّالّون﴾ . (الحجر: ٥٦)

﴿قل يـٰعباديَ الّـذين أسرفوا علىٰ أنفسهـم لاتقنطوا من رحمة اللّـه إنَّ اللّه يغفر الذُّنـوب جميعاً إنَّه هـو الغفور الـرَّحيم﴾ . (الزمر: ٥٣) ... اذا آمن بهذه الحقيقة ، فسوف يرجو الله تعالى ولا ييأس من رحمته ، والرجاء هو المردود الطبيعي لهذه المعرفة .

١١ – واذا استقر ذكر الله تعالى ، واستقر وعي كتاب الله في صدره رقّ قلبه ، وزالت عن قلبه القسوة **﴿اللّه نزّل أحسن الحديث كتـٰباً متشابهاً مثانيَ تقشعرُّ منه جلود الَّذين يخشَون ربَّهم ثمَّ تَلينُ جلودهم وقلوبهم إلىٰ ذكر اللّه﴾** . (الزمر: ٢٣)

١٢ – واذا استقر الايمان وذكر الله في قلبه خشع قلبه لذكر الله **﴿ألم يأن للَّذين ءَامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر اللّه﴾** . (الحديد: ١٦)

١٣ – واذا استقر في قلبه الولاء لله ورسوله والبراءة من الطاغوت أحس في نفسه بالسكينة والطمأنينة **﴿فمن يكفر بالطّـٰغوت ويؤمن باللّه فقد استمسك بالعروةالوثقىٰ لاانفصام لها﴾** . (البقرة: ٢٥٦)

﴿فمن يؤمنْ بربِّه فلايخاف بَخساً ولا رهقاً﴾ . (الجن: ١٣)

١٤ – واذا آمن بأن الله تعالى هو الحاكم المنفرد بالحكم والملك والسلطان في هذا الكون ، وأنه رب المشرق والمغرب ، ولا إله إلا هو... أوكل أمره كله الى الله بثقة وطمأنينة .

﴿ربُّ المشرق والمغرب لا إله إلاّ هو فاتَّخذه وكيلاً﴾ . (المزمل: ٩)

١٥ – واذا عرف أن العزة كلها لله ، وأن السلطان والامر كله لله ، وأن لله خزائن

السموات والارض شعر شعوراً عميقاً بالاعتزاز بالله تعالى .

﴿ **إنَّ العزَّة للّه جميعاً** ﴾ . (يونس : ٦٥)

﴿ **من كان يريد العزَّة فللّه العزَّة جميعاً** ﴾ . (فاطر : ١٠)

﴿ **كتب اللّه لأغلبنّ أنا ورسلي إنَّ اللّه قويٌّ عزيز** ﴾ . (المجادلة : ٢١)

﴿ **وللّه العزَّة ولرسوله وللمؤمنين ولكنَّ المنٰفقين لايعلمون** ﴾ . (المنافقون : ٨)

﴿ **وللّه خزائن السَّمٰوٰت والأرض** ﴾ . (المنافقون : ٧)

١٦- وإذا أفرغ صدره من شواغل الدنيا إنصرف الى الله تعالى ، وانقطع اليه ، وتملكه ذكر الله وشغله ذكر الله عن ذكر غير الله .

﴿ **يـٰأيُّها الَّذين ءامنوا لاتُلهكم أموالُكم ولا أولـٰدكم عن ذكر اللّه** ﴾ . (المنافقون : ٩)

فإن نصيب العباد من ذكر الله ، بقدر ما يتخلصون من شواغل الدنيا وصورافها .

١٧- وإذا وعي آلاء الله تعالى ونعماءه وما أسبغ عليه من نعم ظاهره وباطنة شعر شعوراً عميقاً بشكر الله تعالى ... فإن الناس جميعاً يتمتعون بنعم الله عز شأنه ، ولكنْ قليل من الناس من يشعر بنعمة الله تعالى وفضله على عباده ﴿ **وقليل من عبادي الشَّكور** ﴾ .

يقول تعالى :

﴿ **ومن رحمته جعل لكم الَّيل والنَّهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلَّكم تشكرون** ﴾ . (القصص : ٧٣)

١٨- وإذا آمن الانسان بالله تعالى وأسمائه وصفاته الحسنى وجماله ورحمته ورأفته بعباده وجميل صنعه ... ﴿ **وللّه الأسماء الحسنىٰ** ﴾ . (الاعراف : ١٧٩)

﴿ **اللّه لا إله إلاّ هو له الأسماء الحسنىٰ** ﴾ . (طه : ٨) ... وآمن بجميل صنع الله تعالى به ، ورأفته به وإجتبائه إياه ، وفضله عليه ... فإنه لا يملك نفسه من حب الله تعالى والوله والشوق اليه تعالى والإنس بذكره ... فإن الايمان بالله وصفاته وأسمائه

الحسنى لا يمكن أن يفارق الحب، ومهما كان إيمان الانسان أقوى كان حبه لله تعالى أعظم وشوقه اليه أكثر.

﴿والَّذين ءَامنوا أشدُّ حبّاً للّه﴾. (البقرة: ١٦٥)

هذه جملة من مردودات «شرح الصدر» في نفوس المؤمنين فاذا شرح الله تعالى صدور عباده بالايمان والاسلام والمعرفة، فإن مردودات هذه الصدور تكون من سنخ ما أحل الله تعالى فيها من المعرفة، وهذه المردودات تفيض من صدور المؤمنين بصورة طبيعية.

والقرآن الكريم يعطي إهتماماً كبيراً لمسألة شرح الصدر، ولما ينزل الله تعالى على صدور عباده وقلوبهم من واردات المعرفة، وما يصدر ويفيض عن صدور المؤمنين من مردودات المعرفة من المعرفة والتسليم والرضى والخوف والرجاء والذكر والحب والشوق والانس بالله، والتوكل والاعتزاز بالله والمراقبة، والرقة واللين والخشوع وغير ذلك من مردودات شرح الصدر.

فاذا أراد الانسان أن يشرح الله تعالى صدره للاسلام والايمان، وأن ينزل على صدره النور والمعرفة، وأن يفيض من صدره المعرفة والحكمة... فعليه بالقرآن... فإنه مفتاح شرح الصدر، وفيه كنوز المعرفة التي يودعها الله تعالى في صدور عباده المؤمنين.

وقد كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام يقول اذا ختم القرآن: «اللهم إشرح بالقرآن صدري واستعمل بالقرآن بدني، ونور بالقرآن بصري، واطلق بالقرآن لساني وأعنّي عليه ما أبقيتني، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك».[1]

(١) بحار الأنوار ٩٢/٢٠٧، والإختصاص: ١٤١.